بيت الغريب

سلسلة الخيال العلمي (١٨)

بيت الغريب

رواية من الخيال العلمي

د. قاسم قاسم

١

وهو يسير سمع عجوزاً تناديه ليساعدها على حمل أغراضها، لكن سامي لم يفهم مرادها، إلا عندما أشارت إليه. عندها خطا نحوها، وقبل أن ينصرف سألها بما معناه:

- عفواً سيدتي: المدينة. اتجاه؟

راح ينظر إلى الشارع، عندما وجده خالياً من المارّة. استدار نحو طريق آخر ليجد نفسه أمام مدخل حديقة تزينها الأشجار. استوقفه المنظر، فاقترب حتى صار جالساً على مقعد خشبي، عيناه كالكاميرا تلتقطان كل ما تقعان عليه. بينما هو غارق في حاله، أيقظه صوتٌ، وعندما التفت وجد عجوزاً بجانبه يحييه ويسأله: هل أنت من هذه الناحية؟

لم يفهم سامي سؤاله، فكرّر ما سمعه.

أجاب العجوز: أسكن قريباً من هنا، وأنت؟

كرر سامي أيضاً ما سمعه.

استغرب العجوز وسأله: أنت أيضاً من هنا. هذه المرة الأولى التي أراك فيها في الحديقة العامة.

لم يفهم سامي معنى كلام العجوز، فبقي صامتاً ما جعل العجوز يسأله: ألا تحسن العربية؟

رد سامي بلكنة غريبة: العربية؟

فسأله العجوز لتوضيح سؤاله: أقصد ما اسمك؟

- سامي الطيار.

وقف العجوز مستغرباً: أنت سامي الطيار؟ وتابع:

والرجل الموجود في المقبرة، هل تعرفه؟

صَمَتُ سامي من جديد، جعل العجوز ينتبه ويتراجع...

إلا أن اللقاءات تكررت بينهما. وعرف سامي الطيار أن المدينة التي حطّ فيها تعرضت لكارثة رمادية حجبت الشمس، عطّلت حركة المطارات، ودبّ الذعر في نفوس الناس، انقطعت الاتصالات بين المسافرين وأهلهم، ناموا في العراء، تشرَّدوا، جاعوا، عطشوا، أما من علق على الطرقات فقد أخفته الرمال، وبذلك جمدت الحياة في المدينة لمدة طويلة، حتى إن حجارتها وأشجارها تلوّنت باللون البنّي الفاتح، ومن بقي من السكان نجا بالمصادفة، أما الباقون، إما هلكوا بسبب المعاناة في الجهاز التنفسي، أو صاروا مرضى، حتى بدت الصورة أقرب إلى القبر المفتوح، وفي إحدى المرات نصحه العجوز بزيارة المقبرة، لأنها برأيه هي الشاهد على ما جرى، فتواعدا على الذهاب، ولم يكد سامي

يخطو الخطوة الأولى لتصوير المساحة الخضراء المزروعة بشتى أنواع الزهور، حتى أعاده صوت العجوز إلى الوراء، فرآه يشير إلى صخرة ملساء مدوّن عليها اسم سامي الطيار، عندها سأل سامي العجوز عن معنى ذلك. ردّ الأخير بأن الاسم ربما يعود إلى أحد أقاربك، ثم استدرك: بإمكانك الاستعلام من الموقع المخصص للمقبرة.

راح سامي يردّد الاسم. من دون انتباه وجد نفسه داخل مكان مغطّى بالضباب، إلى أن وصل إلى بحيرة تحيطها الأشجار من كل جانب، فجلس إلى حافتها يصغي لوشوشات أشجار الحور التي كانت أوراقها ترتجف طلباً للحياة، كأن الشتاء قادم، أو أن الطبيعة صارت تخاف من تكرار ما حدث.

بعد أيام وجده العمال متراخياً تحت شجرة البلُّوط، ولما اقتربوا منه نهض متثاقلاً باتجاههم، فظنوا أنه يريد بهم شرّاً، وخصوصاً عندما شاهدوا ضوءاً يخرج من إصبعه، فتكاتفوا عليه وحملوه إلى المستشفى حيث أُجلس في زاوية أشبه بالمثلث، وقد أحاط به عدد من الأشخاص لا يشبهون العجوز من حيث الشكل. حرك رأسه نحوهم فردوا عليه بالحركة نفسها، ولما رفع يده فعلوا مثله ماعدا واحداً، اقترب وعرّف عن نفسه باسم الصديق المفترّض، وأضاف متابعاً: أخبرنا العمال أنهم وجدوك قرب البحيرة، وأنك منذ أيام تركن في تلك الناحية، ولم يكد يتفوّه بعبارة هل أخبرتنا؟ حتى سمع الموظفة الأربعينية الشقراء تناديه قائلة: دعه لأن اللجنة قررت استجوابه.

طلبت منه الأربعينية الجلوس بانتظار حضور أعضاء اللجنة، الذين دخلوا بعد دقائق إلى غرفة جانبية، وقبل جلوسهم كانت أبصارهم شاخصة باتجاه سامي، الذي لم يستطع تمييزهم إلا بالارتفاع، فناداه الأطول بينهم قائلاً: هل عرَّفتنا إلى حضرتك؟

لم يفهم سامي معنى الجملة ، فأشار إليه بذلك.

فردّ الأطول: ألا تعرف العربية؟

صمت سامي ولم يجب.

استغرب قصير القامة وسأله بدوره: لم تردّ على السؤال؟

عاود سامي الصمت.

عندها تدخَّل متوسّط القامة: هَلاّ قلت لنا ما اسمك؟

- سامي الطيار.

- وما مدى قرابتك بالضريح رقم ٦ ؟

صمت سامي ولم يجب.

تدخَّل قصير القامة من جديد:

- ما هي مهنتك؟

- باحث.

ردَّ طويل القامة:

- باحث على ماذا؟

ردَّد سامي بطريقة آلية أكثر من مفردة، ما جعل اللجنة ترفع جلستها إلى اليوم التالي.

❖ ❖ ❖

٢

في الوقت المحدد استدعوه، فبادره طويل القامة فوراً: هل لديك أقارب في المدينة؟

ردّ بما معناه: أخبرني المتقدم في الزمن أن جدّي يقيم في المقبرة.

علّق متوسط القامة على كلامه:

- وأنت أين تقيم؟

صمت سامي ولم يجب.

عندها سأله قصير القامة: ومن هو المتقدّم بالزمن؟

أجاب: الذي أراه في الحديقة العامة.

- تقصد الرجل العجوز؟

أجاب بما معناه: هكذا يسمّى!

- إنما لم تخبر اللجنة لماذا تبقى في الحديقة؟

أجاب: لأنها مكان واسع.

- أتُفضِّل الأمكنة الواسعة؟

أجاب: إنها امتداد ولا سقف لها.

ضاعت اللجنة في أجوبته فتشاوروا في ما بينهم، وأعادته الأربعينية إلى زاويته التي تشبه المثلث. يراقب من يتشابهون، ويسجّل حركاتهم وهم ينظرون إليه حائرين مثل اللجنة في أمره، وقد ازداد حدّة حين تزاحم المرضى حوله لمشاهدة ما يجري في زاويته، وخصوصاً عندما شعّ بالخطأ ضوء من إصبعه، فظنوا أنه يمازحهم، لكن المرأة الأربعينية جاءت، في اليوم التالي وأخذته إلى اللجنة، ولحظة دخوله أبصر حذاءه منتصباً إلى الطاولة، فانتبه إلى أنه عاري القدمين، فبادره طويل القامة:

- هات أخبرنا ما قصة حذائك؟

بقي سامي صامتاً وحركة عينيه تجول بين الحذاء وقدميه.

وتابع طويل القامة أسئلته:

- ألا تراه غريباً أيها الباحث؟

- تقصد لا يشبه أحذيتكم؟

- حسناً، هذه أول جملة صحيحة تتلفظ بها.

تدخّل قصير القامة وسأله: هل تدلّنا على المحلّ الذي اشتريته منه.؟

كرّر الجملة التي سمعها بصوت منخفض وعاد إلى صمته.

علّق قصير القامة: لا يبدو أنه يفهم العربية جيداً.

مرة ثالثة أعادوه إلى زاويته، ثم استدعوا الصديق المفترض وطلبوا منه مراقبته.

تكوَّم سامي الطيار أمام النافذة المطلة على الحديقة العامة، علّه يشاهد الرجل المتقدِّم في الزمن، فقد مضى نهار وليل وهو يتأرجح بين زاويته التي تشبه المثلث والأشخاص الذين يشبهون العجوز من حيث الشكل، وفي لحظة شروده جلس إلى جانبه الصديق المفترض، شاخصاً بدوره إلى المكان الواسع، فجأة استطال وراح يقفز حالماً لمح المتقدِّم في الزمن وغادر لملاقاته.

اندهشت اللجنة من خبر الصديق المفترض، فتساءلت كيف أمكنه الخروج من النافذة؟ وفي اليوم التالي عُثر عليه في كوخ قرب إدارة العلوم والطب.

بعد أن أعيد إلى زاويته التي تشبه المثلث أخضعته اللجنة لاستجوابات عديدة، وفي كل جلسة كانت تخرج بالنتيجة ذاتها، إلا أنها أعطت لنفسها فرصة مراقبته من البعيد، وتركت له حرية البقاء

أو المغادرة، فوُجد في الليل ساهراً عند باب الكوخ، حتى صار منزلَه، يغادره صباحاً، سائحاً يسجّل في جهازه ما يبصره من ألبسة ومأكولات وفاكهة وخضار، ويأوي مساءً معيداً ما سجَّله مراراً. والملفت أنه كان يختار سوقاً يدخله كل يوم، ويسجّل المفاصلة التي تتم بين أصحاب المحلات والزبائن، وفي نهاية كل زيارة يعيد التسجيل. ولما زار سوق السمك أبدى البائع دهشته من أسئلة سامي، وطيّر صوابه حين سأله:

- هل يطير السمك عندكم؟

ردَّ البائع:

وكيف يطير؟ إنه يقفز في الماء! شيء محيِّر، لم أسمع في حياتي أن السمك يطير.

عندها أجاب سامي: السمك يطير، الحوت يطير.

تَواجَهَ سامي مجدداً مع أعضاء اللجنة فخاطبه قصير القامة:

أخبرنا، هل صحيح أن السمك في بلدكم يطير، وهل لنا بمعرفة اسم بلدكم وموقعه؟

صمت سامي وكالعادة لم يجب.

إلا أن الموظفة الأربعينية الشقراء وبناءً على طلب اللجنة، أخذته إلى قاعة كروية الشكل، وطلبت منه إرشادهم إلى موطنه. ثم بثّوا صور

المجموعة الشمسية، ولما ذهبوا إلى مجموعة تقع خارج درب الحليب، أشار إلى كوكب صغير يدعى القمر الأزرق، فطالبوه بأن يثبت لهم صدقه، فتعثّر وصمت كعادته، فتركوه بعهدة الصديق المفترض علّه يستنطقه.

❖ ❖ ❖

٣

في اليوم التالي أخذته الأربعينية الشقراء إلى داخل القاعة، ليجد الذين يشبهون العجوز جالسين وراء طاولتهم. وأمامهم الميكرو كومبيوتر، فلما أطلّ طلبوا إليه الجلوس والردّ على أسئلتهم ، فبدأ طويل القامة:

هل تصف لنا القمر الأزرق؟ حالما سمع سامي المفردة، انطلق لسانه قائلاً:

- السمك يطير، الحوت يطير.

تعجب قصير القمة وسأله: هل ترمي من وراء كلامك أن السمك يطير بدل أن يسبح؟

تدخَّل طويل القامة فخاطب سامي قائلاً:

بالأمس، قلت لنا إنك جئت من خارج درب الحليب، من كوكب يدعى القمر الأزرق، وإن السمك يطير، فلماذا لا تطير أنت؟

أمسك سامي رأسه بيديه، فقد انتابه صداع جعله يحسّ بألم فصار يدور في الغرفة وهو يردّد:

– السمك يطير، الحيتان أيضاً تطير، الشجر باسق، والبحر عال، الشجر في الأسفل.

لم يكد ينهي مفرداته حتى انفجر أعضاء اللجنة بالضحك، فأمروا الأربعينية الشقراء أن تعيده إلى زاويته التي تشبه المثلث وهم يردّدون: السمك يطير، السمك يطير.

– على الرغم من عدم ثقة اللجنة به، إلا أنها فضلت مراقبته من بُعد، وتركوا لأنفسهم خيطاً رفيعاً، فصار يمشي في المدينة ويذهب أينما يشاء، ويمضي أكثر أوقاته في الحديقة العامة مع صديقه العجوز، الذي أخذه مرة ثانية إلى المقبرة ليدلّه على أسماء غابت أثناء كارثة الرماد البركاني.

مساءً، وأثناء عودته إلى كوخه، أبصر فتاة تسير وحدها، ووراءها فتاة أخرى على بعد أمتار من الطريق العام، فظل ينظر إليهما حتى اختفتا عن ناظريه. وفي المساء التالي بينما كان يتمشى قرب الحديقة العامة مرت أمامه سيارة حمراء تقودها إحدى الفتاتين، ومرّ نهارٌ آخر إلى أن استُدعي من جديد أمام اللجنة، فلما دخل شاهد فتاة السيارة تتوسط الجلسة وحولها شخصان مختلفان، لا يشبهان أعضاء اللجنة السابقين، وتطلب منه الجلوس والردّ على الأسئلة باقتضاب:

وجاء السؤال حول مدى معرفته بالرجل العجوز. لم يعلّق بسبب عدم فهمه السؤال، فعاودت طرحه بطريقة أخرى:

- هل الرجل المتقدِّم في الزمن هو أحد أقاربك؟

حدَّق سامي في وجه الفتاة ونطق: سيارة حمراء، ليل، جسر.

في هذه الأثناء أشار إليها الشخص الجالس إلى جانبها، بقراءة ما جاء على شاشة الميكرو كومبيوتر. حدَّقت بعدها ملياً في وجه سامي الطيار وسألته:

ما علاقة سؤالي بـ : السيارة الحمراء، الجسر، والليل؟

عندما عاود سامي ترداد: سيارة حمراء، الليل، الجسر.

ظهرت بوادر التوتر على وجه الطبيبة ففضّلت المغادرة فيما تابع الشخصان استجوابه.

بعد وقت قليل، أثناء وجوده أمام مبنى إدارة العلوم والطبّ، رأى فتاة اللجنة تشير إليه بالصعود إلى سيارة حمراء فقفز دون تردُّد، لتنطلق به وهو صامت، لا يعرف ماذا ينتظره. وبعد أن اجتازت المفرق الأول، التفتت نحوه وعرّفت عن نفسها بصفة طبيبة نفسانية، وأن اسمها (نور بدوي)، تعمل في إدارة العلوم والطبّ التابع للمستشفى. وبعد أميال استأذنته بشراء علبة بطاقات كهربائية، ثم تابعت القيادة دون أن تلتفت إليه، فوجد نفسه غارقاً في مقعده مستمعاً إلى موسيقى هادئة تشبه موج البحر.

ولما انطلق لسانها تراءى أمامه سور الحديقة العامة، فعرف أنها أعادته إلى كوخه، وقبل أن يخطو باتجاه مفرق الغابة، سألته: هل فعلاً رأيت سيارة حمراء، أجابها: سيارة حمراء، ليل، جسر.

أكملت طريقها وهي تحادث نفسها، أتراه يشير إلى سيارتي، وراحت تردِّد: ألا توجد سيارة حمراء غير سيارتي؟!

في مساء آخر أخذته نور بدوي في نزهة تعرّفه فيها إلى معالم المدينة، وهو مستسلم لهذه الرفقة التي تخللها حديث عن مهنتها كطبيبة، وهي تحاول مراقبة حركاته ودراستها. رأته يكثر من التطلع إلى حذائه وأحياناً يفرك أصابعه، وكثيراً ما كان يركِّز بصره لمدة طويلة على مشهد معيّن، كأنه يحاول أن يحفظ كل شاردة فيه، وهي تسعى للتقرب منه عساه يفتح فمه وينطلق لسانه، فيخبرها بما ترغب فيه، لكنها في كل مرة كانت تصاب بخيبة أمل عندما تطرح عليه السؤال، ويكرر لها أنه رأى سيارة حمراء، جسر، ليل.

في مساء آخر، شاهدته خارجاً من مبنى إدارة العلوم والطبّ، فلحقت به، وحين اقتربت منه اقترحت عليه السير داخل الحديقة العامة، فالطقس جميل. لم يُبْدِ سامي أي اعتراض فسارا حتى غابا عن النظر، ولم تنتبه أن يدها أَمسكت يده وأنها وقعت فريسة جهازه السرّي، وتابعا السير والسكون يلفّهما وأوراق الشجر ترسل نسيماً ناعماً، فعلَّقت قائلة:

- الجوّ شاعريّ هذا المساء.

ردّ قائلاً: - الشجر فوق.

- لم أفهم.

أجاب بما معناه:- في القمر الأزرق الشجر تحت.

- أيضاً لم أفهم.

تركها وراح يستمع إلى صوت العصافير وهي تأوي إلى أعشاشها، فلحقت به، رأته جالساً قبالة إحدى شجرات الصنوبر الباسقة. نادته، لم يردّ، دنت منه وهمست في أُذُنه. أيضاً لم يردّ. كان يصوّر في صمت نوم العصافير غارقاً في تأملاته حتى احتل الظلام مساحة الرؤية. رجته العودة، فقام متأبطاً ذراعها، ولما وصلا إلى الطريق العام استأذنها الوحدة، لم تمانع. فسار كل باتجاه. وفي داخل كوخه راح يعيد ما سجّله جهازه، ولم يخطر بباله قراءة أفكار الطبيبة، فأعاد صورة الطبيبة مرات عدة حتى حفظها عن ظهر قلب، إنما مساء اليوم التالي وأثناء خروجها من مركز إدارة العلوم والطبّ خطر لها أن تفاجئه بحضورها لكنها شاهدت الموظفة الشقراء تسير مبتعدة فتابعت، ولما وجدته خارجاً يبصر الفضاء الممتد، اقتربت منه ودخلت معه مباشرة في الحديث عن البارحة فسألته:

- هل تحب العصافير؟

ردّ بصعوبة : – العصافير، الشجر.

– رأيتك مهتماً بنوم العصافير، هل تحب الطبيعة لهذه الدرجة؟

ردّد وراءها :– الطبيعة، الشجر، العصافير.

أقصد :– حب الطبيعة؟

– الطبيعة؟

عندما شعر أن إجابته كانت صحيحة انفرجت أساريره. فتابعت الطبيبة كلامها قائلة: الغابة مسكن الحيوانات.

فردّ عليها وكأنه فهم معنى سؤالها : وسامي الطيار صاحب الرقم ٦، المقبرة؟

في هذه الأثناء جاءها اتصال جعلها تعتذر من سامي وتلح عليه لإيصالها إلى سيارتها. أطاعها حتى وصلا إلى باحة إدارة العلوم، والطبّ، وقبل صعودها إلى السيارة الحمراء خاطبها قائلاً: السيارة الحمراء تتوقف ليلاً.

اضطربت نور وسألته: هل تقصد سيارتي؟

ردّ عليها : السيارة الحمراء، الجسر، الليل، الجهاز المرئي.

انطلقت بعصبية وهي تردّد : عجيب أمرك أيها الغريب؟

صباح اليوم التالي وأثناء نزهته المعهودة، شاهد المتقدّم في الزمن جالساً على المقعد الخشبي، فحيّاه وتابعا حديثهما عن الكارثة الرمادية التي حلّت بالمدينة، وعلم سامي أنها كانت رهيبة نظراً لقلة الناجين منها.

سأل سامي بما معناه: وماذا فعلتم؟

أجاب العجوز: استعانت المراكز بالطاقة البديلة وهي عبارة عن بطاريات كهربائية مشحونة.

- ومن أين جاءت الكارثة؟

- من الغبار البركاني الذي غطّى المدينة بكاملها، وحوّل جميع الألوان إلى لون واحد.

- وكيف صمدتم؟

- من تراهم مثلي قليلون.

في اليوم التالي لم يلتقِ بالطبيبة عند المدخل فخطر له أن يعود ليسأل عنها، فوجد نفسه أمام قسم جهاز الاتصال المرئي، لم يكد يدوّن اسمها حتى شاهدها ممدّدة في سرير أشبه بأسرّة المستشفيات، فاحتار كيف يصل إليها. استنجد بالممرضة الشقراء، التي وجدتها فرصة مناسبة لمرافقته، وما إن دخلا حتى علّقت الأخيرة قائلة:

- ماذا حدث؟

ردّت نور: اسألي العالِم بالغيب.

بقي سامي شارداً حتى لحظة دخول الطبيب، الذي أسهب في شرح ما حدث، إلى أن قال:

- الحقّ على سوسو.

عرف سامي أن سيارتها الحمراء تعطلت ليلاً فوق جسر النهر.

كان سامي صامتاً عندما فاجأته نور تقول: إنك جئت من القمر الأزرق، وهل كل مواطني بلدكم يتنبؤون مثلك؟

أحسّت الشقراء أن سامي غير مرغوب فيه، فتذرعت بالطبيب وتابعا إلى أن وجد نفسه في فضاء جديد يشبه المستشفى، ولم يَدْرِ أن الشقراء التي كانت تراقبه منذ اللحظة الأولى أوقعت به، وهو الآن ينظر من النافذة إلى حيث تتمدّد الطبيبة، فيما الشقراء استراحت من ثيابها، وتقدمت نحوه طالبة منه اللحاق بها، فأطاعها، وقام بما طلبت منه، ثم دفعته إلى السرير وهو لا يدري مُرادها. فلمّا قفزت فوقه شعّ إصبعه وانتفض جسدها فأحسّت بلهيب النار يتغلغل في داخلها فصارت تعلو وتهبط وكأنها تمتطي حصاناً راقصاً حتى خرق فحيحُها صمت الليل فانقلبت تَعَباً فتركها، وغادر إلى المستشفى وباله مشغول على الطبيبة، وهاجسه سوسو، ولما سنحت له الفرصة سألها عن معنى تعطلت سوسو.

أجابته: إنه جهاز إنذار مرئي مرتبط بكمبيوتر السيارة، وهو بمثابة المرشد لأي طارئ.

وتابعت: يبدو أن بلدكم خال من السيارات.

أجاب: السمك يطير.

مازحته نور قائلة: ألا يطير البشر أيضاً؟

مساء اليوم التالي غادرت نور إلى شقّتها فصار يزورها برفقة الصديق المفترض، ثم اعتاد الحضور وحده ما أدخل الفرحة إلى عالمها، بعد أن كان خالياً منذ أيام الدراسة، ورأت فيه شيئاً غير اعتيادي. أحياناً تحاول الاقتراب منه وأحياناً أخرى تبتعد عنه، فهو لايشبه الصديق المفترض، وحتى طريقة جوابه غريبة، وبالتالي هو مازال بالنسبة إليها غريباً، وعليها اكتشافه، وكأنها مهمة ألقيت على عاتقها بعد أن ملّت اللجان من التواصل معه، وظهر لها أنه كان يقضي وقتاً طويلاً مع الروبوت.

وبدا مشهد الأستاذ مألوفاً في شقّتها، وهي مدهوشة من الدرس الذي يتلقاه سامي على يد أستاذه الروبوت، وخصوصاً المفردات التي يتلفظ بها، والتي تتعلق أحياناً بالمطبخ ومحتوياته أو بطريقة تحضيره لبعض المأكولات، فتتركهما لتخرج إلى عملها، وعندما تعود تجدهما في المطبخ يحضّران الطعام، فتنادي سامي، فيسرع ليجالسها وقت

المساء الذي تفضِّل قضاءه إلى شرفتها المطلة على بحيرة المدينة، وهو يتابع بعينيه حدقات عينيها علّه يجد فيهما إشارة يفهمها، لكنه يبقى محشوراً وكأنه موجود وغير موجود، وكأنها تنتظر منه التفاتةً ما تكسر الخطوة الأولى، وهو كالروبوت يطيع الأوامر، لكنه لا يعرف كيف يتصرف.

وهي ضائعة في فهم لغزه، وكيفية التعامل معه، وكانت الأفكار تؤرجحها، فلا تقع إلاّ على شخص أمامها لا هو روبوت، ولا هو يشبه الصديق المفترض، وبما أنها طبيبة نفسانية، فقد ظهر لها بوضوح أن المَيّل ليس مجرد حركة، بل هناك شيء آخر عليها اكتشافه، فهل حركات سامي تتوجه نحو موضوع معيَّن، وما هو هدفه، وبالتالي من هو؟ ولماذا رافقته الموظفة الشقراء إلى المستشفى؟ جملة أمور تشغل بالها، وهي تستقبله في شقّتها مصرّة على التقاط أنفاسها، مغامرةً في تصرُّفها، واثقة من نفسها إلى حدّ أنها تتركه يداعب أغراضهَا، فتحس بأصابعه تداعب جسدها، إنما غُموضُه يحيّرها، وعليها المخاطرة، وعندما تسأل الروبوت عن رأيه في سامي يوزع عليها مفردات متباعدة، فتلجأ إلى علمها تغوص فيه، فربما وقعت على مفتاح علاقتها بسامي، فوضعت نفسها تحت الاختبار. حالما تماثلت للشفاء وعادت إلى مزاولة عملها، أحست بلسعة حضوره، فارتعبت ووقفت أمام المرآة تحادثها، وتفشي ما بداخلها وتسألها المساعدة، ومن أين تأتي، فتترك للوقت اختباره وتأخذ بنصيحة اللجان أن اتركيه يتصرف بحرية.

وتعددت اللقاءات، حتى إن سامي حاول تقليد الروبوت، إلا أنها كانت تثنيه عن ذلك، وتطلب منه البقاء إلى جانبها ومحادثتها عن بلده، فيروح يسرد لها طبيعة الحياة، وهي بالكاد تصدِّقه، لأن كل ما يقوله غير مألوف لديها.

إلا أن منطقه جعلها تصغي إليه، وعندما يتعب يلجأ إلى حكّ رأسه، والتطلع إلى حذائه، دون أن تسأله عن سبب ذلك، بل أرادت مراقبته وهو هادئ يتصوّر بعينيه جمالها وألفاظها، ثم كعادته عندما يختلي بنفسه يعيد الصور. ومرة شاهده الروبوت، جالساً إلى الطاولة يبصر تسجيلاً عن جلسة المساء مع الطبيبة، فاستوى إلى جانبه دون أن يتلفظ بأي كلمة، وسامي غارقٌ في قراءة شفتيها، يلمس خديها ويمرّر أصابعه بين ضفائر شعرها، أداءٌ ما اعتاد الروبوت رؤيته، إلا في مشاهد الأفلام التي تبثها الشاشة.

ولما أطلّ المساء، وجلسا إلى الشرفة، تحرك سامي باتجاهها حتى التصق بها، فارتعبت من تصرُّفه، وكادت أن تطلب منه العودة إلى مكانه، لكن يده مرت بسرعة على شعرها، ماجعلها تقف وتطلب منه الكفَّ عن ذلك، فاستعان بتركيب جمل، أشبه بالشعر، حين سمعته تهاوت وهي غير مصدِّقة ما يلفظه، وعندما انتهى أبدت إعجابها بكلماته، وهي واثقة أنها بحاجة إلى إحساس مازالت تفتش عنه في شخصيته.

وتساءلت كيف يقول الشعر وهو أشبه بالروبوت؟ فذكّرتها الحادثة بحكاية شابٍ أحبّ فتاة وادّعى أنه ينظم الشعر، فطالبته بقصيدة،

فاستعان بالكومبيوتر الذي سأله عن صفاتها، فنفّذ له طلبه، فلما قرأتها الفتاة، علّقت: جميلة لكن ينقصها الإحساس، فعاد الشابّ إلى الكومبيوتر، راجياً منه قصيدة مفعمة بالإحساس فما كان من الأخير إلا أن انفجر!

فهل ينفجر سامي إذا أصرَرَتُ عليه؟ حادثت نفسها ثم رمت الفكرة جانباً لخوفها من حدوث شي له، وبالتالي تركته يركّب الكلمات على منواله، فربما خرجت أحاسيسه المدفونة في أعماقه.

أيقنت نور أن وظيفتها أبعد من قراءة شخصية سامي، وخوفها أن تلتفت إليه وتغوص في غموض عينيه وهي الطبيبة، فهل تخطو نحو المجهول؟ والأنثى بطبعها ضعيفة تجاه الرجل، فكيف إذا وُجد معها ليلَ نهار؟ ألا يعقل أن تعتاد عليه؟ وهاهي إشارته بدأت تطلّ، لذلك طلبت مساعدة الصديق المفترض، وما إن وضعته في الصورة، حتى تبرع بإعادة سامي إلى كوخه.

هدأت هواجسها قليلاً ، وشعرت في اليوم الأول أنها استردّت حريتها، إنما خَبَرُ الصديق المفترض أنه شاهد الموظفة الأربعينية الشقراء خارجةً من الكوخ، قَلَبَ مزاجها وعكّر صفو حياتها، فحاولت استبطان ذاتها فلم تُفلح، فاستنجدت بالروبوت، علّه يرشدها إلى مبعث قلقها، فلم يفهم شيئاً مما روته له، فصارت تقضي النهار متنقلة بين المستشفى وإدارة العلوم والطبّ عسى الانشغال يبعد عنها قلقها ووحدتها.

أما الصديق المفترض، وبناءً على طلب اللجنة وصديقته الطبيبة نور، فقد لازم سامي الطيار كظله يزوره من الصباح، ويبقى معه حتى منتصف الليل، يستطلعان أسرار المدينة وسامي مسرور بما يراه فقد ملّ من رؤية الأسواق، وما يشاهده الآن هو الأضواء التي تشع في وسط المدينة، حيث المقاهي تعجّ بروّادها، والسهر حتى الصباح، أمكنة جديدة لفتت نظره فسجّلها وغامر أحياناً في إخراج الضوء من إصبعه راسماً صورة ما يستطلعه، ثم يعود وحيداً إلى كوخه نائياً عن الناس، محدِّثاً جهازه في وحشة الليل الذي يطول أحياناً لكثرة لكلاب التي تنبح في الجوار.

اتخذت نور قراراً جريئاً هو زيارة سامي في كوخه. ما إن أطلّت حتى أطلق صرخة غريبة، دعتها إلى التردد في الدخول، فأسرع إلى حملها ووضعها على الصوفا ثم اقترب منها وصار كالطفل يلامس شفتيها وخديها وشعرها، وهي تبتسم له كابتَةً خوفها ولاعنةً قرارها الخاطئ بالمجيء إليه وعندما تنحّى جانباً تنفست الصعداء، وأصلحت من جلستها ثم سألته:

- ماذا أصابك، ولماذا صرخت؟

- ظننتك!

- مَنْ؟ تَكلّمْ.

صمت سامي كعادته ولم يجب.

لكنه دنا من عينيها وكرّر مفردة ظننت، عاد الخوف إليها، فخاطبته قائلة:

– ألن تخبرني ما يزعجك؟

– كرّر جملتها وعاد ليتوقف أمام مفردة ظننت ثم وقف وراح يردّد:

– الأضواء، المركبة.

احتارت نور في أمره، فآثرت الصمت على الكلام.

إلا أنها شعرت أن مفردته الأخيرة، الأضواء، المركبة، فيها شيء خفيّ، فحاولت التفوُّه بشيء ما لكنه أدار وجهه إلى ناحية أخرى، فأدركت أن في الأمر سراً ما. دنت منه ولم تكد تضع يدها على يده حتى أظهر جهازُهُ أنها ستسأله عن الموظفة الشقراء، فأخبرها قبل أن تنطق بحرف واحد، ما جعلها تقف مدهوشة، ولولا تدخُّله السريع لارتطم رأسها بالباب، فبادرته فوراً:

كيف عرفت بما سأتلفظ به؟

صمت أيضاً ولم يُجب.

دارت حوله وسألته:

هلاّ صارحتَني ولو لمرة واحدة بشخصيتك؟

سامي الطيار، من القمر الأزرق

هل عدنا إلى الحكاية نفسها؟

ردّد وراءها مفردة الحكاية مرات عدة.

عندها حملت حقيبتها واتجهت نحو الخارج وهي تقول:

- إذا لم تخبرني، فلن ترى وجهي بعد الآن.!

أظهر جهازُه صورةً مشوَّشة فأسرع قائلاً:

- الصورة مشوَّشة.

فعلَّقت وقد أصبحت خارج الكوخ:

تصرفك هو الغريب!

أحسَّت الطبيبة نور بأنها قسَت عليه بكلامها، فأرادت الاعتذار. لذلك زارته مساءً، فوجدته خارج الكوخ يتطلع نحو الفضاء المفتوح، يعد كواكب المجموعة الشمسية وكل كوكب وبُعْدَه عن الشمس، وطبيعته وهي تصغي مدهوشة بذاكرته العجيبة، وبعد أن أكمل كلامه راحت تصفّق له ثم أردفت قائلة:

- ياه! ماهذه الذاكرة العجيبة يا سامي، ومن أين لك كل هذه المعلومات؟

– المهم أننا نبصر بعضنا بعضاً.

فاجأها قوله فسألته عن معنى ما يرمي إليه:

عاود تكرار جملته.

عندئذ علّقت قائلة:

– عجيب أمرك، تتحدث إليّ وكأنك تراني صورة.

– أراك صورة.

– غريبة؟

ردّد وراءها: غريب.

انفعلت نور وقالت: ما بك كلما ذكرت مفردةً تردّدها ورائي، ثم أخبرني كيف حفظت كل هذه المعلومات؟

ردّد وراءها مفردة ذاكرة عدّة مرات.

قالت: حتى كلمة ذاكرة تردّدها؟

أجاب: كلمة جديدة.

صُعقت الطبيبة نور عندما تلفّظ بمفردة جديدة، فسألته الإعادة:

فكرّرَ المفردة مرّات عدة.

بعدها راحت الطبيبة تشرح لسامي معنى الذاكرة.

وملّخص ما قالته:

إنها وظيفة نفسية تسترجع حالةً وعَيّناها في الماضي، مع علّمنا أنها تخصّ الماضي فقط، ومنهم من يرى أنها موجودة في الدماغ، وآخرون يَرون العكس.

كان سامي الطيار يصغي إليها بانتباه. وعندما انتهت أعاد كل كلمة قالتها، فصرخت في وجهه قائلة: أنت مذهل! كيف حفظت كل كلمة قلتُها؟

صباح اليوم التالي حضر إليه الصديق المفترض الذي سأله عن العجوز:

فردّ سامي: لقد ذكّرتني به!

- أما زال يزور الحديقة كعادته؟

أجاب سامي: العجوز يزور الحديقة.

أحسّ الصديق المفترض بتَغيُّر في مفردات سامي فتابعا إلى الحديقة العامة، وهو لايكفّ عن النظِر إليه مدهوشاً بما سمعه.

وكان الصباح جميلاً، فما إن شاهدهما العجوز حتى هبّ مرحِّباً، وأجلسهما إلى جانبه معاتباً سامي على عدم حضوره.

فتبرّع الصديق المفترض قائلاً:

- دعه إنه مشغول.

التفت ناحية سامي وسأله:

- هل وجدت عملاً؟

ردّد وراءه مفردة عمل مرات عدّة.

ردّ الصديق المفترض: إنه منشغل في تنبؤاته؟

- هل هذا صحيح يا سامي؟

- مهما حاولت لن يجيبك، فلديه مزاج معيَّن.

- لم أفهم...

- إنه هكذا، يصعِّب الأمور علينا وعليه.

- الحقّ معك، أحياناً أراه غريباً في تصرفاته وعباراته.

كان سامي شارداً كأنه يركّب معنىً لما يراه. فجأة قطع الصديق

المفترض شروده وقال له: العجوز دعانا إلى بيته، ألا تحب زيارته نهار الأحد، إنه يوم عطلة ومناسب للجميع؟

راح سامي يكرر مفردة الأحد، فعرف من الصديق المفترض أنها تعني عطلة الأسبوع في المدينة، فسُرّ بهذه الدعوة. وفي الزمن المحدد عرّج عليه الصديق المفترض، وتوجَّها سوياً إلى منزل العجوز الذي رحّب بهما ودعاهما إلى الداخل، وما إن شاهد سامي المرأة العجوز، حتى جمد للحظات ثم تابع طريقه ليجلس داخل الصالون الموشح باللون البنّي القاتم، فسأله الصديق المفترض عن سبب تفاجُئه بالسيدة العجوز، فأخبره بالقصة. وفي هذه الأثناء عاد العجوز حاملاً طبقاً من الكعك المحلّى، وقبل أن يضعه إلى الطاولة، جاءت العجوز حاملة إبريق الشاي فقام الصديق المفترض وساعدها، فلما جلست، أشارت إلى سامي قائلة:

وجهك ليس غريباً عني!

فتبرّع سامي وسرد لها القصة.

فعلّقت: أوه نسيت، ولكن سألتني عن ماذا؟

ردّ سامي: الطريق إلى المدينة.

ياه لم أعد أذكر شيئاً!

تابع الصديق المفترض: ثم تعرَّف إلى زوجك.

تدخَّل العجوز قائلاً: سننسى الشاي.

عندها تبرَّع الصديق المفترض بسكب الشاي.

ولم يكد يتذوق سامي الكعك المحلّى، حتى علَّق قائلاً: إنها لذيذة.

ما دفع الصديق المفترض إلى التعليق بدوره: أراك اليوم غريباً، وما تتلفظ به يعتبر تقدُّماً.

ودار حديث عن الغبار البركاني وما تركه من كارثة بيئية وبشرية، لكن اتصالاً جاء الصديقَ المفترض قطع جلستهم.

في صباح اليوم التالي غادر كوخه لملاقاة العجوز في الحديقة العامة، وقد تأخر على غير عادته، ولا عزم على القيام بنزهة، شاهده قادماً برفقة الصديق المفترض، من ناحية الغابة، فأسرع باتجاههما، وما كاد يصل إليه حتى شكا العجوز من التعب قائلاً:

- إنها الشيخوخة!

ردَّ الصديق المفترض:

- مازلتَ شاباً!

- في هذه الأثناء شاهد الصديق المفترض الأربعينية الشقراء جالسة على بعد أمتار منهم.

حرّك سامي رأسه إلى الأعلى ثم تطلَّع نحو الصديق المفترض وسأله:

- مامعنى الشيخوخة؟

ردّت الشقراء التي كانت تستمع إليهم:

- إنها الزمن البيولوجي.

- تطلّع سامي نحو مصدر الصوت وقال: لم أفهم!

أشار إليها الصديق المفترض بالاقتراب وهي غير مصدِّقة ما سمعت، انضمت إليهم، وتابع من دون أن يلتفت ناحية سامي: تقصد انتهاء الطاقة.

تفرّس سامي في وجه الموظفة الأربعينية وسألها: وأنتِ متى تنتهي طاقتك؟

تعجبت الشقراء من سؤال سامي فردّت بثقة:

- ألا تراني صبيّة- وراحت تخبط على صدرها- وصحتي مثل الحديد، وبالتالي ((عُمّر الشقي بقي))؟

- لم أفهم!

- مع الأيام ستفهم يا سامي كل شيء.

ردّ الصديق المفترض: لا إذا كان يتعمد ذلك!

في اليوم التالي وأثناء تجواله في الباحة الخارجية لإدارة الطبّ والعلوم، شاهدته الطبيبة نور يقفز كالضفدعة، استغربت أداءه، فاقتربت منه معلّقة:

- هل كنت تقلّد الضفدعة؟

ردد وراءها الضفدعة.

- نعم، إنها حيوان صغير يعيش قرب ضفاف المستنقعات، ويقفز مثلما تفعل الآن؟ على فكرة، هل شاهدته، إنه يشبهك في اللون.

- يبدو أني وجدت شخصاً أحادثه.

- تعالى ضحكها، حتى كادت تنحرف عن الطريق، وهو يحدّق في وجهها غير مدرك سبباً لتصرفها، وأثناء انطلاقها على الأوتوستراد السريع لمحت سيارة تمرّ بعكس اتجاهها، فأرادت امتحانه قائلة:

- إنها تحمل الرقم ٦٦٦ ، سوداء، فيراري، حَكَّ جبهته ومن دون أن ينظر إليها قال:

- إنها سيارة الموظفة الشقراء وتحمل الرقم ٦٦٦٠ .

بانفعال : - هل تراهن؟

صمَت ولم يجب.

حين ارتسمت صورة السيارة على الشاشة أمامها، صمتت، ثم تطلعت إليه وسألته: هل أنت متأكد؟

أجاب: سيارة الشقراء الأربعينية تحمل الرقم ٦٦٦٠

أوقفت السيارة جانباً وخرجت بعد أن صفَقَت الباب وراءها، وهي تردّد بعصبية ظاهرة: هذه الوقحة يوماً ما سأنال منها . وما إن سمعها تقول: يبدو أنك تعرف كل شيء عنها، نعم الصديق أنت ياسامي، حتى توارى عن الأنظار، فحاولت مناداته أو اللحاق به، إنما قفزاته أوصلته إلى الغابة، وتابع كالغزال حتى دخل بين الأشجار، ولم تدعه الذئاب وحيداً فرافقته حتى وجد نفسه أمام طريق مسدود، حاول التقدم إنما كثافة الأشجار وقفت سداً أمامه فعمد إلى إضاءة إصبعه، فظهرت له ملامح قطعٍ صخرية وأشجارٍ باسقة، وأظهر له جهازه صورتين، صورة من القمرٍ الأزرق، بينما الصورة الثانية أمامه، فهاهو يقف الآن أمام مرتفع تلتف حوله أوراق شجر تشبه البحيرات الصغيرة، تسبح فيها أسماك متنوعة. ضيّعه المشهد، فهل ما يراه هو حقيقي أم صورة بثها جهازه؟! وقف حائراً! هل يقف فعلاً على أرض تابعة لمدينة الغبار البركاني؟ إلا أنه حين سمع أصواتاً التفت ليشاهد مجموعة من الناس تهرول أمامه، أيقن بعدها أنه يقف على أرض مدينة الغبار، فرفع رأسه وقفز حتى أصبح بمحاذاتهم، وكلما داس الأرض ارتفع كالضفدعة، إلا أن قفزاته الأخيرة أوقعته في الماء، فسبح بإعياء. وبعد مسير أميال

وجد نفسه أمام واجهة مضاءة، ما إن دخل حتى شاهد الطبيبة تجلس قبالة الصديق المفترض، فحيّاهما وجلس بصمت.

بدت الطبيبة غير عابئة به، فلم تلتفت إليه، فيما ردّ الصديق المفترض على تحيّته سائلاً إياه عن سبب تبلُّله بالماء. لم يجب كعادته لأنه لم يفهم معنى السؤال، عندها استدارت نحوه وخاطبته:

- هل هي إحدى عاداتك؟

- أجاب: السيارة رقمها ٦٦٦٠ .

- أعرف. إن هذه العاهرة تلاحقك، إنما لماذا اختفيت؟

غرق سامي في شروده وبدت عيناه تنغلقان.

فخافت الطبيبة من حدوث شيء له، فطلبت من الصديق مساعدتها للوصول به إلى السيارة، أما مفرداته فبقيت ترنّ في مسامعهما. الضفدعة. بحيرة، ماء، أوراق الشجر عالية، بحيرات، الحيتان تطير.

البحر فوق، الشجر تحت.

السمك يطير،

الشجر طوله ٥٠٠٠ م.

أحسّت الطبيبة بخطئها وخوفها عليه من الشقراء. حين عاد

سامي إلى الزاوية التي تشبه المثلث في المستشفى، واظبت على زيارته حتى لا تترك أي فرصة للممرضة بالاقتراب منه. بعد ليلتين، ولما تحسنت حالته أخذته الطبيبة، وقد حنّ قلبها عليه، إلى شقّتها، إلا أنه في اليوم الرابع تركها وظلَّ يقفز حتى وصل إلى التلة التي تشرف على الوادي فتسلّقها، ومن الأعالي قاس المسافة بين الموقع وأسفل الوادي وظلّ يصعد ويهبط، وفي ظنِّه أن المركبة الفضائية تركته في هذا الموقع، فيما الصديق المفترض الذي تعب من الانتظار أمام باب الكوخ، استنجد بالطبيبة فشكّلا فريقاً للبحث عنه فوجداه نائماً عند الموظفة الشقراء التي ادّعت أنها وجدته نائماً أمام باب شقّتها، فحملاه وأعاداه بعد أن نبهاها إلى خطورة سلوكها، وبالتالي أبلغاها حِرص إدارة علوم الطبّ عليه.

عاد إلى كوخه، منزوياً مع جهازه يعيد ما ارتسم، إلا أنه ظهر في اليوم التالي في الحديقة العامة يتحادث مع العجوز، ثم شاهدته الطبيبة مساءً يقف أمام مقهى البلد، يحدّق في الواجهة تارةً ويصوِّب نظره إلى الداخل تارة أخرى، فركنت سيارتها ونادته فالتفت نحوها وقفز كعادته فيما انطلقت به في نزهة خارج المدينة. في الطريق انهالت عليه بمليون سؤال.. وهمّها أن تكشف الغامض في شخصيته، فاستدرجته إلى التلة، وفي بالها أن صمت المكان يستنطقه، ولم تدرِ أنه المكان الذي يظن سامي أن المركبة الفضائية أوصلته إليه. سارا جَنباً إلى جنب، ولما وصلا إلى الحافة اضطرب قلب الطبيبة نور، وخشيت أن يقع إلى أسفل الوادي، فشدته من يده محاولة زحزحته، إلا أنه أفلت

منها ومشى على بعد نصف متر من حافة الهاوية، والطبيبة تنادي حتى اختفى صوتها. ولما أنهى بهلوانيته واستعراضاته، التفت ليجدها على الأرض، فقفز كعادته وحملها إلى السيارة، ولما استفاقت صفعته على وجهه وقامت وهي تردّد:

- مجنون، مجنون.

❖ ❖ ❖

في اليوم التالي أخبرت الطبيبة الصديق المفترض بما جرى، فانطلق وراءه، وقبل وصوله شاهد الشقراء تمشي بمحاذاة الطريق المؤدي إلى الكوخ، ولما لحق بها أقلعت بسيارتها. فعاد ليجد سامي أمام الكوخ يتطلع صوب الفضاء، حيّاه وسأله عما حدث البارحة:

حكّ رأسه وقال:

- البارحة؟

- نعم، وأين كنت؟

حكّ رأسه ثانية:

- وادي، الطبيبة، جبل.

- حسناً، وهل تذكر ما جرى للطبيبة نور؟

صمت ولم يُجب.

– لا بأس، الحقيقة أنه أغمي عليها من تصرفاتك السوبرمانية.

– آه السوبرمان الذي يطير.

– لا تغيّر الحديث، دعنا منه الآن والآن لن أتركك قبل أن أعرف سبب تهوّرك على حافة الجبل، وسبب ملاحقة الموظفة الشقراء لك.

بقي الصديق المفترض طوال الوقت محاولاً اقتحام ذاكرة سامي، أحياناً يلتقط إشارة، وغالب الأحيان يعود إلى نقطة الصفر.

في اليوم التالي وأثناء توغُّله في الأحياء القديمة لمدينة الغبار، وتحديداً في منطقة الوسط التجاري، وبعيداً بضعة شوارع عن الحديقة العامة، تراءى له أن أضواءً تلاحقه، فانطلق محاولاً الابتعاد عنها، ثم قطع مسافة خالية من البناء، حتى وصل إلى مكان أشبه بالسوق لكثرة المحلات المصطفة إلى جانبيه، لكنها خاوية ولا أثر للحياة فيها، فتابع حتى وصل إلى باحة خارجية تطل على البحر، ولما التفت ناحية الغرب شاهد الطبيبة تقف على رأس هضبة. عندها أسرع في قفزاته حتى أدركها، فانطلقت به، وعيناه تحدّقان في الفضاء المفتوح.

ظنت الطبيبة نور أنّ الأمر لا يعدو سوى رغبة منه في تصوير الأحياء القديمة لمدينة الغبار، إنما عندما كشفه الضوء من جديد، طلب منها إنزاله قرب الحديقة العامة، فطاوعته، ولم يكد يلامس

حذاؤه التراب حتى تمدد كالمطاط وقام بقفزات بهلوانية خوفاً من الضربات الضوئية التي انهالت عليه بالتتابع، وراح يرسم في رقصته مربّعات ومستطيلات وألغازاً كونية، حتى خُيِّل إليها أن الرجل فعلاً قد جُنّ، ولولا إشفاقها عليه لكانت أوصت بإدخاله مستشفى الأمراض العقلية... إنما مع كل قفزة كانت ترسم في ذهنها علامة استفهام، خصوصاً وأن الحاضرين في الحديقة العامة ارتعبوا مما جرى، وفرّوا كلٌّ باتجاه.. وما إن نزلت من سيارتها للاطمئنان عليه، وفي لحظة اقترابها منه اصطدمت بشيء ما فسقطت مغشياً عليها.

أعاقت الصدمةُ الطبيبة من مغادرة سريرها. وعندما حضر الصديق المفترض للاطمئنان عليها انفجرت في وجهه قائلة، انُظر ماذا فعل بي؟

أجاب باستغراب: لا أصدِّق، أعرف أنه غريب، لكن أن يصل به الأمر إلى حدّ ضربك فهذا هو الجنون بعينه.

– لا، ليس الأمر كما تتصور.

– إذن، ماذا حصل؟

حالما انتهت الطبيبة من شرح ما حدث معها، وقف الصديق المفترض وراح يدور في الغرفة معلِّقاً:

– لا، لا أصدّق!

- ومن يصدّق أني قبل وصولي إليه اصطدمت بشيء غير مرئيّ.

- ومن أين جاءت الأضواء؟

- كل ما أعرفه أني كنت أقود السيارة عندما رأيته يخرج من مفرق طريق الكوخ. فجأةً بدأ بالركض، عفواً، بالقفز، إلى أن وصل إلى زاوية مفرق السوق القديم.وقفتُ هناك بدافع الحشرية، وصرتُ أتلفّت يميناً وشمالاً بحثاً عنه. ثم شاهدته يقفز بسرعة ويرتمي في المقعد الخلفي، وجرى ما جرى في الحديقة العامة.

- علينا أن نخضعه لِلَّجنة من جديد.

- في البداية لم نعرف التعامل معه، وهانحن الآن أمام شخص يحمل أسراراً.

- قولي، كشف سراً علينا معرفته.

- مارأيكَ في دعوته قبل استجوابه؟

- قلبكِ رقيق تجاهه.

- أحبُّ الأشخاص المختلفين!

- وهو؟

- لابدّ من وجود شيء يخبئه في جنونه.

- على رِسْلِكِ يا نور، أنت تفصِّلين وأنا ألبس. وقبل أن يخرج أخبرها أنه شاهد الموظفة الشقراء تحوم حول الكوخ.

- ردّت بافتعال: لابدّ من إبلاغ الإدارة بتصرفاتها، وإلاّ؟!

ذهب الصديق المفترض لمرافقة سامي إلى شقة الطبيبة نور، فلم يجده في الكوخ. عرّج على الحديقة العامة فوجدها مغلقة، استغرب الأمر فاتصل بإدارة العلوم والطبّ التي وضعته في الصورة، وأوكلت إليه مُهمة تلوين حدود مساحة الحاجز اللامرئي، فحضرت فرقة وباشرت بإشرافه الترسيم باللون الأبيض، وبث أجهزة مراقبة على مدار الساعة.

عاد الصديق المفترض خالي الوفاض، وأخبر الطبيبة نور بتفاصيل الورشة، فعلّقت قائلة:

- المهم، أين سامي؟

- هل عاد من حيث أتى؟ هل خبّأته الشقراء الملعونة؟

- ياه، لم تخطر على بالي هذه الفكرة، كم أنتِ ذكية؟

- كنت أفكر بقفزاته.

- هل وضعت إدارة العلوم والطبّ تقريراً بالحادث؟

– أعتقد ذلك!

– إذن فلننتظر النتائج.

– لا بأس؟

– عدنا للبحث عن سامي.

– لنجرب شقة الموظفة الأربعينية؟

– لنترك الأمر إلى إدارتها .

– هل أنتِ واثقة مما تقولين؟

– أفضّل أن تعالج الإدارة سلوكها .

❖ ❖ ❖

٤

بعدما أُغلقت الحديقة العامة، صار العجوز يأتي كل يوم، يدور حول سورها كالضائع، وعندما يتعب ينادي سامي ثم يعود أدراجه وينكفئ في منزله حتى أصابه الوهن، فلازم فراشه، إلى أن أحسّ باقتراب منيّته، فأوصى زوجته أن تحسن ضيافة سامي في غيابه. لكن حدث بعد ذلك أن العجوز، في إحدى الليالي، تراءى له سامي واقفاً بجواره فهبّ من فراشه مذعوراً، منادياً زوجته التي حضرت كالمجنونة، تسبقها عصاها، فلما أنارت الغرفة رأت زوجها يحادث نفسه! حلم العجوز تحقق في اليوم التالي عندما سمع طرقاً على الباب. وما إن همّت العجوز بفتحه حتى رنّ صوت سامي في أذنيها على الرغم من ضعف سمعها اقتربت منه وقد أذهلها وجوده فعلّقت قائلة:

- السيد سامي.

ونادت زوجها.

- انهض، انهض، لقد جاء صديقك سامي.

أخبرهما بما جرى وأنه الآن موجود في الحديقة العامة.

فردّ العجوز:

- لكنها مغلقة!

- إنها القصة!

- أي قصة؟

- الأضواء، المركبة الفضائية.

- لم أفهم؟

- الأضواء حولي.

- لم أفهم شيئاً؟

- اجلسا وسأخبركما، إنما أريد ....

آه، فهمت، أسرعت السيدة العجوز، وأحضرت له الكعك المحلّى.

خوف العجوز على سامي دعاه للاتصال بالصديق المفترض، وإخباره بما حصل، فتنفست إدارة العلوم والطبّ. ولما نقلوه إلى المستشفى وجدتها الممرضة الشقراء فرصة للبقاء بجانبه، وكالعادة أخذته إلى اللجنة، فخضع للاستجواب تلو الاستجواب، حتى إنهم قرروا وضعه في غرفة انفرادية، وصار خاضعاً كليًّاً لسلطة المرأة الأربعينية وموظفيها، لا يرى سواهم، ولا يلتقط سوى إشاراتهم، ولا يسجل سوى حركاتهم، وهو صامت، وضائعٌ في وضعه فإذا خرج هناك الأضواء التي مازال مشغولاً بتفسيرها، وسبب ملاحقتها له، وإذا بقي أضاع وقته سدىً، ليجد نفسه بعد طول تفكير بين طريقين. وبدا له

بعد مراجعة معلوماته، أن البقاء مَضْيَعَة للوقت، ومع ذلك لم يُردْ إحداث أي تأثيرات سلبية، ويكفي ما حدث، فقرر الالتزام بقواعد الإدارة، حتى صدر التقرير الأول وجاء فيه: سلوكه جيد.

بناءً على التقرير زارته الطبيبة في انفراديته، ودارت مناقشة بدأتها هادئة ثم انفجرت في وجهه قائلة:

– انظر ماذا فعلتَ في جبيني؟

أجاب مستغرباً:

– جبيني.

بانفعال ظاهر قالت:

– جبيني أنا، انظر هنا.

– هنا.

– نعم هنا، ألا ترى!

– أرى.

– إذن، أنت ترى ماذا فعلتَ بي؟

– أنتِ.

– ردّد ورائي أنا.

– أنا.

– أحسنت أنتَ.

– ومن غيرك كان في الحديقة العامة يقفز؟

– أنا .

– أحسنت، إنما أمرك محيّر، ألا تذكر ما جرى؟

– أنا .

– نعم أنت، ياه.. ضيّعتني أ تذكر؟!

– الأضواء، المركبة.

– أكمل، رُحْتَ تقفز.

– الأضواء في الحديقة العامة، أمامي، أقفز.

– أخبرني ما قصة الأضواء؟

حدَّق في عينيها وقال:

– عيناك أضواء.

– هل الأضواء تعني لك شيئاً؟

حرَّك رأسه إلى الأعلى فانتبهت الطبيبة وقالت: لماذا بقيت ضمن الجدران، طالما باستطاعتك الخروج؟ ثم اقتربت منه وهمست في أذنه قائلة: يبدو أنك على انسجام مع الممرضة الشقراء؟

أيضاً لم يجب، فتركته وعادت إليه بعد ساعتين، مدفونة بغيرتها المتصاعدة وغموضه الذي يزداد عند كل حادثة. حالما رآها هبَّ واقفاً ومرحِّباً، شكرته وجلست قبالته، تحادثه عن رضى إدارة العلوم والطبّ على سلوكه، وأنهم بصدد إخراجه من المستشفى إذا بقي على هذا المنوال، وأفهمته أنه بإمكانه التجوال مجدداً في المدينة شرط عدم القيام بأي خطوة تجاه الموظفة الشقراء.

يبدو أن سامي الطيار وقع في مأزق، وعليه اتخاذ قرار يضبط سلوكه، فصار يميل برأسه إلى الأمام علامة الموافقة ما أثلج قلب الطبيبة نور، التي اقترحت على إدارة العلوم والطبّ الإفراج عنه لمدة مشروطة، إلا أن موافقة الإدارة جاءت مشروطة أيضاً، فقد كان عليه الخروج لمدة محددة والعودة إلى مبنى إدارة العلوم والطبّ، وبالتالي لم يكن هذا القرار مجّانياً، فقد تعمدت الإدارة إسناد وظيفة له في المبنى، فربما شغلته وحاكت اهتمامه، أو تموضع بعض الشيء.

وافق، بعد أن أخذ رأي الطبيبة. ورأت الإدارة أنه لا يرتاح إلا لها على الرغم من ملاحقة الموظفة الشقراء له.. وأكد الالتزام بخطوات الإدارة، حين وجد نفسه في القاعة الكروية التي شاهد فيها الكوكب الأزرق، ولم يكن يعلم أنه يجلس في النافذة الفضائية، فتنفس الصعداء عندما أحاطه السكون الرهيب الذي يغمر الفضاء، فبدا مسروراً بما يراه، وعندما طُلب إليه مساعدة أحد العلماء، في رصد ضوء خارج المجموعة الشمسية، ضحك قائلاً:

– الأضواء تلمع

التفت إليه العالِم وسأله: أين؟

عمد سامي إلى تدوين أرقام على اللوحة الزجاجية، وبسرعة قياسية قاس فيها بُعد النجم، فتعجّب العالم من مهارته في الرياضيات الفيزيائية، فأخبر إدارة العلوم الطبّ بذلك، التي هالها مادوّن على اللوح الزجاجي، واستنتجت لأول مرة، أن سامي يتمتع بقدرات فائقة، فقررت بعد التشاور تخفيف المراقبة عليه، خوفاً من ضياعه أو هروبه، وحتى لا تنكث اللجنة بوعدها، زوّدته بجهاز مرئي وبطاقة اعتماد.

انطلق مراقباً عن بعد، سائراً على غير هدى، يحدِّق في الأمكنة كالسائح، وما إن وصل إلى مدخل مقهى البلد حتى أحسّ أن شيئاً يدفعه إلى الدخول، فمشى خطوات ثم توقف ليجد أمامه صورة تجمع ثلاثة أشخاص. أحنى ظهره ومدّ رأسه إلى الأمام محدّقاً في الصورة بشكل ملفت، حتى إن النادل استغرب تصرُّفه، فتركه ظناً منه أن الرجل ربما يكون معتوهاً أو غريباً. لكن ما حدث دعا النادل إلى التراجع عن استغرابه، إذ لمّا اقترب منه سامي حيّاه، وطلب منه القهوة مع الكعك المحلّى، ثم جلس وعيناه عالقتان في الصورة وعندما أحضر النادل الطلب، سأله سامي عن أسماء الأشخاص الموجودين في اللوحة، أجاب النادل إن جدّته صاحبة المقهى ربما تعرف من هم.

❖ ❖ ❖

٥

ليلاً، ما إن بثّ صورة المقهى عبر جهازه حتى أُصيب بألم في رأسه، ولما بثّ صور الألبوم، ازداد الألم إزعاجاً ما جعله يتمدد في غرفة خصصتها له إدارة العلوم والطبّ في مبناها.

مساءَ يوم آخر، خرج كعادته متجهاً إلى مقهى البلد، ولم يكد يخطو إلى الداخل حتى تفاجأ بوجود الطبيبة، فدعته إلى طاولتها، لكنه فضّل الجلوس قريباً من الصورة، لكن الطبيبة اقتربت منه قائلة:

- يبدو أنك تفضّل الوحدة؟

نظر إليها، ولما أشار لها بالجلوس اندفعت تخبره عن ارتياح اللجنة لسلوكه، فيما بقي سامي شارداً في الصورة، مما دعاها إلى التعليق قائلة:

- هل يزعجك حديثي؟

في هذا الوقت جاء النادل وأخبر سامي قائلاً:

- إن لديه معلومات عن الصورة.

استهجنت الطبيبة كلام النادل فسألته:

- إلامَ تشير؟

- إلى الصورة.

- ما بها؟

- اسأليه.

- لماذا؟

- ألا ترينه شارداً فيها.

- هذا صحيح.

- أكملِ.

- لقد طلب معلومات عنها.

- وهل تعني له شيئاً.؟

- لا أعرف يا سيدتي، كل ما في الأمر، أنه حضر مساء أمس واستحوذت عليه كالمأخوذ، وهاهو اليوم...

- وماذا في الصورة غير الأشخاص؟

- رجاءً اسأليه.

- قلتَ إن لديك معلومات؟

- نعم سألت جدّتي وهي صاحبة المقهى.

- وماذا قالت؟

- لقد ذكرت لي أسماءهم.

- حقاً؟ هيّا أكملْ.

تطلع سامي ناحية النادل بانتباه تام، وسأله:

- هل سألت جدّتك؟

ردّ النادل:

- نعم، الأول، إلى اليمين، وأشار بإصبعه الذي تابعه سامي شوقي الملاّح، أما الشخص المتوسط الصورة فهو سامي الطيار، والثالث لم تعرفه.

علقت الطبيبة:

- هل يعقل ذلك.؟

حالما سمع سامي اسمه استدار نحوها وقال:

- سامي الطيار، الذي يسكن في المقبرة.

ردّت الطبيبة: ربما الذي يسكن في المقبرة؟

أخبرت الطبيبة اللجنة بما جرى في مقهى البلد، فأيقنوا أن سامي تلفته الصور القديمة، ويرتاح لها، ولابد من وجود قرابة بين سامي الطيار المدفون في المقبرة، وسامي الطيار القادم حسب اعتقاده من القمر الأزرق، لذلك ارتأت الإدارة إخضاعهما إلى فحص جنائي لتحديد تقارب جينات كل منهما. وبعد ساعة طلبت إدارة العلوم والطبّ أخذ عيِّنة من عظام الراقد في التراب، فيما أخضع سامي لفحص دم عادي، فجاءت الطبيبة بنتائج غير متوقعة، إذْ أظهر الفحص الجيني قرابة بينهما. عندها تغيرت نظرة اللجنة، وبادرت بعد أن عرفت أنه من سكان المدينة، إلى البحث عن أقارب له، زوجة، أولاد، أعمام.

وجاءت النتائج سلبية وغير متوقعة، حيث لم يجدوا أي أثر لعائلة الطيار.

❖ ❖ ❖

أمام هذه الأحجية، ارتبكت الطبيبة، وضاعت ففضَّلت أخذ إجازة. وأثناء خروجها مساءً صادفت سامي أمام المبنى يتهيأ للخروج. دعته للقيام بنزهة في السيارة فقبل دعوتها، وقفز إلى جانبها يستمع إلى أغنية الحلم، فسألها عن معنى الكلمات، فردّت قائلة:

إنها جميلة وتحمل معاني كثيرة معبِّرة، ولم تدخل أكثر في التفاصيل.

تبعت الطبيبة نور بدوي القيادة حتى وصلت إلى أطراف مغارة البلّور، عندها ركنت السيارة في المرآب، وتوجها سيراً على الأقدام ليدخلا نفقاً يمتد حتى يصل إلى مرفأ، ليستقلا بعدها مركباً، وأبصارهما عالقة في الفضاء حيث المياه تتدلّى أشكالاً تشبه الثريا، وهو صامت يتأمل تلألؤ الشموع المائية فوق صفحة الماء الخضراء. وقتٌ قضياه قبل أن تقلع به نحو الأعلى، فيرتمي في حضن منحوتات الطبيعة، يكتشف ربما شيئاً مما أصاب المدينة، إنما الفرق أن المياه هنا توحدت مع الصخر، بينما الغبار الجليدي في الخارج دمّر الحياة وغلّف البشر بالرماد.

عادت به هذه المرة إلى شقّتها وقد هدّها التعب، وكانت تنوي مفاتحته في أحاديث قد تطول، ففضّلت إرجاءها إلى يوم آخر. تركته مع الروبوت، وتابعت نحو غرفتها لتخبر الإدارة بوجود سامي معها.

انهمك الروبوت في تحضير العشاء، فيما انشغلت الطبيبة نور في حمّامها، وبادر سامي إلى الاتصال بالنافذة الفضائية التي أمدّته عَبّر جهازه، بصورة ما يجري في الفضاء الممتد، فجلس متابعاً باهتمام بالغ حركة النيازك وهي ترقص بأداء صامت، مشكِّلة مشهد تحرُّره من الجاذبية، انفلات يتهادى دون رادع، سابحة وسط سكون رهيب، حيث رهبة الضياع تعمّ الأرجاء، فيما لفّت جسدها برداء الحمّام، لتشاهد مع سامي إيقاعاً ملوَّناً بالأسود والأزرق، تفرّقهما حيناً أضواء تومض مثل منارة السفن، استرشاداً إلى وجود كواكب مازالت مجهولة للإنسان.

بقيا مسمَّرَيْن أمام الشاشة، يتابعان لحظات ستمنح الأمل للبشرية جمعاء وتوسع آفاق العلم، وترسم خارطة جديدة، حين نادى الروبوت أن العشاء جاهز.

ردّت الطبيبة نور بدوي: أحضره إلى هنا.

أكلا والعين مشغولة بالولادة الآتية، سَبْر غور الفضاء مُهمة المراصد، والتحقق من النتائج يأخذ وقتاً طويلاً إنما مُهمة الرحلات وضعت العالم على مفرق جديد، خصوصاً وأن اللوحات المُشْبَعة بالألوان الحمراء، تبعث على الحضور كشفاً علمياً، لأن تشكُّلها اللولبي هو نشاط الهيدروجين فيها.

الطبيبة نور شاهدت سامي يلمس جبهته بين الفينة والأخرى، فأحبَّت الاطمئنان عليه سائلة إياه إذا كان يشكو من شيء ما، فمال نحوها وقد اتسعت حدقتا عينيه، فعلّقت قائلة: ما بك؟

رفع سامي رأسه مرّات عدة، ثم استدار نحو الطبيبة، قائلاً:

– القمر الأزرق يتألف من ماء+ طاقة+ كربون، بينما الأوكسجين يزيد ٣٠٪ عن الأرض.

لم تعلِّق الطبيبة على ما جاء به، إنما أرادت امتحانه في المجموعة الشمسية وخصوصاً القمر قائلة:

– بما أنك ضليع إلى هذه الدرجة بعلوم الفضاء، لماذا السماء دائماً مظلمة في وضح النهار على سطح القمر؟

حكّ سامي جبهته وأجاب: بسبب غياب- الغلاف الجوي.

سؤال أخير، سيد سامي:

- لماذا تبدو النيازك كنقاط ضوئية؟

- إننا لا نتعرف عليها إلا من خلال تنقُّلها بين النجوم، ويوجد مايقارب ١٤٨٠٠ نيزك تتراوح أحجامها من بضع عشرات الأمتار إلى مئات الكيلومترات.

تعجبت الطبيبة نور من حِدّة ذاكرته، فحكّت بدورها جبهتها وتساءلت، هل دماغه مختلف عَن أدمغة علماء إدارة العلوم والطبّ؟ وهل فيه شيء من الإنسان الآلي؟ أسئلة كثيرة كانت تضج في رأسها ولا تجد لها جواباً، لذلك ما إن أطل الصباح، حتى غادرت برفقته إلى مكان عملها وهمُّها أن تلقى إجابة عن بعضٍ مما يشغل بالها. لذلك، ما إن التقت بالعالم كريم المسؤول عن برنامج الإنسان الآلي، حتى سارعت إلى دعوته إلى مقهى الإدارة، فراح يشرح لها كيف دُرب الرجل الآلي، رقم ٢٠١٠ على التقاط الأجسام والتي تشبه استجابات الطفل ثم بطريقة التجربة، استطاع تحريك ذراعيه وتلمُّس الأشياء، ثم التقاطها وإبقاءها بين يديه، وتعرّف الروبوت ٢٠١٠ على الإنسان من خلال عيونه.

هذا صحيح يا سيد كريم، لأن روبوتي عندما اعتاد رؤية سامي في شقّتي صار صديقه.

وصحيح أيضاً من جهة سامي الذي يحدّق في الإنسان قبل أن يجيب. فهل برأيك سامي الطيار إنسان آلي؟

ردّ عليها باقتضاب: إنه بين أيديكم في الإدارة وعليكم الإجابة عن ذلك.

شعرت الطبيبة نور بدوي أن المياه عادت إلى مجاريها بعد ابتعاد الموظفة الأربعينية الشقراء قسراً بسبب تلقّيها إنذارات عدّة، وصارا يخرجان بعد دوام العمل فتأخذه في سيارتهما، تعرِّفه إلى أماكن جديدة، ويعودان إلى الشقّة يقضيان بقية الوقت إلى الشرفة، يحدّثها عن الظلام المنتشر في النجوم البعيدة، سابحاً بعيداً عن الأرض، متلمساً نقاط ضوء من النجوم الشاحبة المتناثرة هنا وهناك، وهي تسأله عن سبب ذكره للظلام، ويردّ قائلاً:

لكننا نخاف الظلام، لأننا نرى الزرقة في النهار، بسبب ضوء الشمس الذي يطرد الهواء من حولنا ومن فوقنا، وفي ليل لا يوجد فيه سحب، نرى السماء سوداء، حيث لا يوجد مصدر كثيف للضوء يكفي لتحقيق انعكاس الهواء.

- تقصد أن سماء النهار لونها أسود في الفضاء.

أجاب بما معناه: السماء سوداء تماماً، لأنك إذا نظرت من الفضاء نحو كوكبكم عن قرب فإنك ترينه محاطاً بشَريط رفيع من الزرقة، يماثل سمكه الغلاف الجوي السفلي، وعلى رأس هذا الشريط، يمكنك

أن تميزي السماء الزرقاء التي يتلاشى لونها تدريجاً في سواد الفضاء، وهذه تسمّى في العلم المنطقة الانتقالية.

داخت الطبيبة من أجوبته، فنادت الروبوت ليحضر لها كوباً من الماء، فقد خنقها سامي بمعلوماته، وأضاعها بتصرفاته، ولم تعد تدري من أين تبدأ؟ كل دقيقة تمرّ معه تحمل عنواناً جديداً، حتى إنها لا تكاد تتذكر ما حصل بالأمس، وخافت أن تفقد ذاكرتها وتصاب بالهرم باكراً، لذلك طلبت من إدارة العلوم والطبّ، مساعدتها في تسجيل كلامه، فحصلت على ما تريد، أي جهاز مرئيّ بغرفة ذكية أشبه ببنك الذاكرة، فصارت قبل أن تأوي إلى فراشها تعيد ما قاله سامي وتنقله بواسطة كمبيوترها النانوي.

في أحد المساءات نظرت إليه فرأته هادئاً على غير عادته، فعلّقت قائلة: هل تشكو من شيء؟

بقي صامتاً.

أحسّت بوحدته، فدعته إلى الاقتراب، أطاعها دون أن يتلفظ بحرف واحد، وأومأت إلى الروبوت أن يتركهما وحدهما ويغلق الباب. فلما صار على بعد سنتمترات، اضطربت وارتعش جسدها، وضاعت من التصاقه بها، فتذكرت كلام العالم: عليكِ يقع الجواب، فراحت تقلّب الجملة من أوجه عدة فلم تعثر على جواب، ولم يخطر في بالها أن تبتعد عنه، فبقيت، فيما بدأت الحرارة تزحف إلى رأسها.

حادثت نفسها طويلاً، وتجنبت حتى النظر إليه، فمضى الوقت وهو جامد كأنه ينتظر أوامرها. إلا أن ما وقع لم يكن بالحسبان، حيث هبّ هواء بارد جعلها تلجأ إلى يديه تطلب منهما تدفئة يديها، فاستدار نحوها وشاهد في عينيها بريق الأضواء فعلّق قائلاً:

- ياه، عيناك تضيئان الفضاء الأسود.

حالما سمعت كلامه انتابتها قشعريرة جعلتها تقع عليه، فحضنها وجعلها تنام كطفل بحاجة إلى حنان أمه،

حملها إلى غرفتها ودثّرها بالأغطية، وقبل أن يبتعد تمسكت به وأوقعته على السرير وراحت تخلع عنه ثيابه ثم نامت فوقه وهي مدهوشة بالضوء الذي بدأ يشع من عضوه، فلم تكد تحسه بداخلها حتى انطلق صوتها، وكادت تحترق من اللهيب الداخل إليها، فصارت تعلو وتهبط وهو ممدّد يبصر عريها، وما إن مالت كغصن شجرة لوته الريح، حتى نهض تاركاً جسدها يتنفس بصمت، ثم أغلق الباب لينضم إلى الروبوت الذي كان في المطبخ يلفظ اسم كل شيء يحمله بيديه، فاقترب منه سامي، وخاطبه قائلاً:

- لماذا تعتمد هذه الطريقة؟

- للتعرّفِ على الأشياء.

- بإمكانك الاعتماد على عينيك، لأنها تمدك بالبيئة وطريقة التعامل معها أسهل.

– أفضّل تجربة الخطأ والصواب، لأنه بهذه الطريقة أطوّر خريطة دماغي.

– أنت متقدم على الآخرين.

بعد أقل من ساعة نادت الطبيبة نور سامي ودعته إلى الحضور إلى غرفتها. ما إن طرق الباب حتى رآها أمام المرآة تسرِّح شعرها، فأذنت له بالجلوس ريثما تنتهي، فأذعن لطلبها مراقباً حركة يديها صعوداً وهبوطاً، فارتسمت أمامه عارية كلوحة فنية، وعندما انتهت سألته:

– هل تحب أن ترى المدينة في منتصف الليل؟

– بقي صامتاً.

فأعادت سؤالها بصيغة أخرى:

– السيارة، ليلاً، الطريق.

هزّ رأسه علامة الموافقة.

قادت به الشارع الرئيسي، ثم اتجهت غرباً وبعد أن اجتازت شوارع عدة، ركنت سيارتها في المرآب وطلبت منه الترجُّل خطوات معدودة وأدخلته إلى مرقص ليلي، حيث الموسيقى تضج في كل الأنحاء والأجساد تتمايل، فاتخذا لهما مكاناً بعيداً، يراقبان شوق الناس للمرح، وبعد أن تناولا كوكتيلاً، أمسكت يده، جرّته وراءها إلى قاعة

الرقص، فانضما إلى حفلة الصخب، يتسابقان في نشوة الرقص، يتمايلان على أنغام الموسيقى، وهو يهندس حركاته، كأنه امتلك ذاته لحظة دخوله، فاندمج دون مقدمات حتى بدا عاجزاً عن التوقف، فاقتربت منه وهمست في أذنه:

- يبدو أنك شقيّ لدرجة أني بدأت أخاف منك!

ردّد وراءها بصعوبة مفردة شقيّ، وتابع هزّ كيانه، وهي متعجبة من أدائه الملفت، تناغم حركي جذبهما، فتلامست الأيدي، وتلوّى الجسد بحرارة النغم، الذي أضحى مستعداً للحظة اللقاء، وهو بعينه يجاري جيرانه، يتابع رقصهم ثم يميل نحوها، ويضع يده على كتفها مقلِّداً، ثم يغزلها فتدور ويدور معها ويلتصق الكتفان، ويعود بها، تراه أمامها يخبرها أن عينيها تضيئان فتضحك ويضحك لضحكها، وتتساءل في سرّها عن هذا التحول، وهل للموسيقى أثرها في اكتشاف شخصيته وهو الذي لم ترَ فيه سوى الصخرة التي لا تلين، فماذا جرى؟

كان ينظر إليها وهي شاردة ضائعة في فهمه، حتى أدركت أنه لابدّ من التعامل معه تبعاً لقواعده، ولم تدرِ أن حضورها إلى هذا المكان فتح لها باباً لم تلتقطه قبلاً، فتابعا تناغمهما وأمضيا الليل حتى اقتراب الصباح.

نامت الطبيبة حتى الظهيرة، بينما لم تغمض عينا سامي، حتى إنه لازم الغرفة الكروية يبصر من النافذة الفضائية نَوّمَ الحركة في

الفضاء، فمكث حوالي الساعة ثم عرّج إلى مكتبه مجالساً الكومبيوتر. لم يستطع تحريك يديه أو تشغيل أصابعه، فرفع رجليه إلى الطاولة وأسند رأسه إلى الوراء علّه يحرك جهازه على البصر، ولولا صوت الطبيبة نور، ما استطاع تحريك جسده، ولما شاهدها على الشاشة. حرك رأسه تحية لها فردّت عليه قائلة:

- وهل تركتني وذهبت إلى العمل؟

لم يعلّق سامي الطيار لأن رأسه بدأ يعمل على موجة أخرى، فاتصل مباشرة بمدير الإدارة الذي استقبله مرحّباً، فأخبره سامي عن طريقته في عمل الكومبيوتر، فراح يشرح أنه مع التوصل إلى تسجيل حركات العين، بات بالإمكان الركون إلى استخدام هذا التقدم كأداة أو وسيلة لإعطاء الأوامر إلى جهاز الكومبيوتر بدل استعمال لوحة المفاتيح وبالتالي فالمشكلة محلولة منذ زمن، لكن سامي أصر قائلاً بما معناه: إنه يمكن استخدام تموّجات أو حركات العين في تشغيل جهاز الكومبيوتر دون الحاجة للوحة المفاتيح وحتى إلى الصوت، لأن الأخير حساس تجاه الأصوات التي تحيط به.

أثنى مدير الإدارة على رأي سامي، وأخبره أنه سيرفع رأيه إلى مجلس الإدارة.

أثناء خروج سامي من مبنى الإدارة، التقى الصديق المفترض الذي ألحَّ عليه مرافقته إلى بيت العجوز، فمشيا حتى وصلا مفرق

الطرق، وبدل أن يتوجها مباشرة عرَّجا على الكوخ، شاهدا كلبين يحرسان مدخله، نَهَرهُما الصديق المفترض وانتظر في الخارج، فيما مكث سامي لدقائق يكرر عَبْر جهازه ما مرّ معه، بعدها تابعا السير، وقبل صعودهما الدرجات الثلاث، سمعا العجوز يرحب بهما، فدخلا والعتاب يسبقهما، فحضرت السيدة العجوز ولم تكد ترى سامي حتى رحبت به ثم ذهبت وأحضرت الكعك المحلّى، وأثناء جلوسهما شاهد الصديق المفترض ألبوم الصور على الطاولة فاستأذن، وراح يقلّب صفحاته ويسأل العجوز عن أسماء الأشخاص، والعجوز يرد عليه بصعوبة، إلى أن لفتت سامي صورة قديمة تشبه إلى حدّ ما صورة المقهى، الأشخاص أنفسهم إنما في إطار مختلف.

فدفعته الحشرية للسؤال عن أسمائهم. تعجّب العجوز وعلّق قائلاً: ألا تعرف أشخاص الصورة؟

بقي سامي صامتاً وما إن تلفّظ العجوز بالاسم حتى قفز غير مصدّق.

فردَّ العجوز: ما بك؟

سامي: غير معقول!

العجوز: وهذا أنا وصديقنا شوقي الملاّح.

سامي: هل تعني أن المدفون في المقبرة رقم ٦ هو نفسه صاحب الصورة؟

العجوز: هو عينه.

سامي: كيف!

الصديق المفترض: المعلومات تشير إلى اختفائه في رحلة خارج درب الحليب.

العجوز: كل ما أعرفه، أني لم أره، منذ كارثة الرماد البركاني، وأنت تعرف ماذا حلّ بالمدينة وأهلها، حتى مياه البحر لبست عمامة رمادية وكثير من الناس ماتوا بالسكتة القلبية بسبب عدم الرؤية. ما إنْ انتهى الحوار بينهم، حتى وقف سامي مستأذناً الانصراف، فلحق به الصديق المفترض وغادرا كل باتجاه.

مساء اليوم التالي، وجد سامي نفسه في سيارة الطبيبة نور، التي عرّجت به إلى شقّتها، ولحظة دخوله، طلبت من الروبوت تحضير العشاء، وقضيا بعد العشاء وهما يكادان يلتصقان، ما جعل جهازه هذه المرة يدفعه إلى الحمّام ليقرأ ما ارتسم على شاشته، وعند عودته علّقت نور قائلة:

أراك تفضّل الحمّام على الجلوس معي!

أجاب بهدوء: أنا هنا.

- أعرف.

وكرّر الجملة.

أريد أن أسألك وأن تجيبيني بصراحة:

لماذا مازلت تخبئ عني أشياء كثيرة؟

أعاد الجملة بطريقة معكوسة.

- أشياء كثيرة، أخبّئها.

- نعم، هل تريد أن أعددها لك، ثم رمت بوجهه عدة أسئلة:

- ما قصة الصورة؟ ما هي قصة الأضواء؟

- ما قصة التشويش؟

- ما قصة حذائك الغريب؟

- ما قصة رؤية الأمور قبل حدوثها؟

- ما قصة القمر الأزرق؟

- ما قصة الشقراء؟

وما قصة شقاوتك الأخيرة معي أم أنك أيضاً لا تتذكر.

وتابعت:

هات أجبني ولو عن سؤال واحد، يا ابن هذه المدينة التي لا ترتاح، وكأن الزمن فيها أسرع مما هو في مكان آخر؟

ردّ سامي بهدوء: طبعاً

إن المدينة بعد فاجعة الرماد البركاني، بحاجة إلى التقاط أنفاسها، إلى بقعة حياة، فسحة طويلة من الزمن حتى تعود.

– ألا تعتبر نفسك ابن هذه المدينة؟ مدينة الغبار القاتل، مدينة الرماد، والتي أصبحت مدينة البرد والجليد بعد احتجاب الشمس عنها.

لم تكد تنهي كلامها، حتى جاءها اتصال مرئي، فغادرت الشرفة لبعض الوقت، ولما عادت شاهدت الروبوت يشير إلى اختفاء سامي الطيار، فصمتت ولم تتلفّظ بكلمة واحدة.

أما سامي، فقد دفعه شيء ما للعودة إلى الحديقة العامة، وقد شاهده الناس يقفز، يرقص، ويرسم خطوطاً ورسوماً أشبه بهندسة البيوت. حدّق طويلاً، في ما فعل على الحشائش، ثم قفز من جديد، وكلما خطا بجسده خطوة كان يشعر بتعب جسدي، إلى أن تهالك في نهاية الممر، فاضطر إلى الجلوس في الناحية القريبة من بيت العجوزين، إنما للحظات. ومضت في رأسه صورة، ليرى بعدها هندسة أحد البيوت القديمة، وقد ارتسم أمامه، فراح يصرخ حتى سمعه الناس، فتجمهروا حوله، وأطلّ العجوزان وشاهده الجميع يشير بإصبعه نحو المساحة البيضاء وهو يردّد:

– إنه المنزل العتيق، انظروا هل ترَون ما أرى؟

بقي العجوزان صامتين مدهوشين من تصرفاته، فتركاه وتوجّها نحو الداخل، فيما بقي سامي يردّد:

- انظروا، إنه البيت القديم، تعالَوا شاهدوا البيت القديم.

حين حضرت الطبيبة نور بناءً على اتصال من العجوزين، وجدت سامي يتمشى حوله المساحة الدائرية البيضاء، ولما حاولت اجتياز الدائرة، اصطدمت كما حصل معها في المرة السابقة بشيء ما، فارتعبت لكنها تمالكت نفسها ومدت يدها محاولة تلمُّسَه، فأحسن بحرارة تسري في جسدها ووقعت أرضاً. وحين استفاقت استغربت من وجودها في السرير، فنادت الروبوت ليحضّر لها الحمّام، ثم نهضت بصعوبة وأغلقت الباب وراءها، إنما صراخها جعل الروبوت يركض نحوها، فسألها عن سبب صراخها، فأخبرته أنها ربما شاهدت شخصاً مرّ أمامها، فعلّق قائلاً:

- الروبوت، أنا، راحة، أيام.

ردّت عليه: فهمت تريد أن تقول إنه يلزمني راحة لعدة أيام.

هزّ الروبوت رأسه موافقاً.

❖ ❖ ❖

عدنا إلى البداية. هكذا علّق مدير إدارة العلوم والطبّ:

– لقد أتعبني سامي، وهاأنا أصطدم مرة ثانية بالمساحة اللامرئية.

– تقصدين مساحة التشويش!

– لقد أخبرنا الناس بما تلفّظ به، وما فعله في الحديقة العامة.

– هذا صحيح، فقد توصّلنا إلى تكوين صورة واضحة عن أصله، ولاشك أنه قريب من رجل المقبرة، بدليل الجينات المشتركة.

– لكن من والده؟

– المعلومات لدينا ربما تشير إلى ضياعه في رحلة فضائية خارج درب الحليب.

– يعني؟

– المهم أننا بدأنا نتعرف عليه وعلى هدفه.

– وما أدراكَ بذلك؟

– سَلي العجوزين.

– ياه! خبر جديد.

باشر العمال بوضع أجهزة مراقبة وتنصُّت حول منزل العجوزين، وقبل أن يغادروا سمعوا أنيناً خافتاً، فتتبعوا مصدر الصوت وما كادوا يصلون إلى الدائرة البيضاء حتى صُمَّتِ آذانهم، واعتراهم ألمٌ في الرأس دفعهم إلى التراجع، بينما الأنين أضحى خافتاً أشبه بصوت طفل جائع، وحدهما العجوزان شعرا بوحدته وكأنهما أحسّا بألمه وعرفا هدفه.

بينما راح سامي يتأمل من فتحة المثلث الضوئي المزروعة في الحديقة العامة نجوماً تلمع في الفضاء وكأنه اشتاق لأيام خلت، للسفر، لمغامرة تعيده إلى ماضيه، ويروح وهو نائم يسبح في كبسولته، أو في مدينة القمر، الأرض التي تعلّم فيها حين زارها بصحبة صديقته، وبقي فيها حتى غادرها في رحلة بعيدة حول النجوم إلى أن وصل إلى محطة القمر الأزرق.

- غريب، لماذا تخبرني بذلك؟

- لا أدري! لقد حيّرني بتصرفاته.

- لكنك اقتربت منه.

- لا تفهمني خطأً.

- الآن ماذا سنفعل؟

- نزور العجوزين.

- فكرة سديدة.

سمعا من العجوزين ما يدل على أنه يبحث عن شيء له علاقة بالماضي.

تابعا البحث عنه، فلم يعثرا عليه، حتى إنه لم يعد إلى مركز إدارة العلوم والطبّ، تراءى لهما أنه مختبئ في مساحته، إنما أجهزة المراقبة لم تكشف حتى دخوله إلى الحديقة العامة، فانشغل بال الطبيبة، وأحست أنها قست عليه، وراحت تتساءل: أين هو يا ترى؟ هل عاد من حيث أتى، هل أخفته الشقراء. وجد الصديق المفترض أن عليه واجب البقاء بجانب الطبيبة التي بدا وجهها شاحباً فاحتار فيما يفعله، فطلب منها الاستعانة بالشبكة العنكبوتية.

فردّت عليه بنبرة حادّة:

- وهل دخل في مختبر الوسائط؟

- ياه! لم أنتبه لذلك، واستدرك قائلاً:

- الخطأ يقع على الإدارة.

- الآن ماذا علينا أن نفعل؟

- لا أعرف !

- ما رأيك في أن نتركه ليظهر مجدداً.

- هل تقولينها من قلبك؟

عمد الصديق المفترض إلى البحث عن سامي فراح يطوف شوارع المدينة ليلاً، إلى أن وصل إلى البحيرة الاصطناعية، وكان الليل قد بسط جناحيه ووجه قمر الأرض يتراقص فوق المياه الراكدة مصحوباً بضباب يتطاير في كل الأرجاء، وبينما هو يراقب المشهد جاءه صوت الطبيبة ثم برزت صورتها على هاتفه تطلب منه موافاتها.

تبعها إلى سيارتها التي كانت متوقفة عند المنعطف المجاور، وانطلقا، والليل كان قد خلع نصفه، باتجاه موقع كان يستعمل لانطلاق المركبات الفضائية.

فانبرى قائلاً: يلزمنا أيام لنصل.

ردّت عليه: أخبرت الإدارة.

– وما الداعي للذهاب مادامت المحطة متوقفة؟!

– لديّ ما أفكر فيه.

– هل يمكن معرفة ما تفكرين فيه؟

– عندما نصل أخبركَ.

– أخبريني لماذا يختبئ سامي الذي يدّعي أنه عاد من القمر الأزرق؟

– أنت لا تصدّقه.

– أمام كل هذه التصرفات، لا، ولابدّ من سرّ ما ...

– ماهذه الثقة الزائدة، هل تبني رأيك على معلومات.؟

– تعرفين أني مازلت أعمل على قراءة دماغه.

– ياه، ما علاقة دماغه بالأمر؟

– طلب مني المركز تصوير كل حركة يقوم بها وإرسالها إلى كمبيوتر قارئ الأفكار.

– هل توصلتم إلى شيء؟

– ليس بالشيء الكثير.

– لماذا؟

– لأننا سنضطر إلى زرع جهاز رصد مغناطيسي في دماغه لمراقبة ما يفكر فيه.

– على حد علمي، توصلتم إلى تفسير الصور القادمة.

– هذا صحيح، وهي تجربة قمنا بها على مرضانا.

– كل ما قلته لا يثبت شيئاً، وأنت سألت لماذا توارى عن الأنظار؟

– ربما عاد وحده!

– هل عاد لأنه لم يتوصل إلى اكتشاف هُويته؟

– أتعتقدين أن العاطفة لها دور في هذه الأيام.؟

– ياه، منذ قليل كنت قرب البحيرة جالساً وحدك، ما الذي أخذك إلى هناك، أكنت تكتب الشعر؟

تابعت والطريق سهل يمتد ولا ينتهي تظلله أشجار الزنزلخت وتسكن إلى جانبه (محلات) صغيرة للمسافرين. حين دخلا شاهدا رجلاً يشبه إلى حدّ قريب سامي الطيار، اقتربا منه مدهوشين، إلا أن الأخير ترك مقعده قبل وصولهما، عندها أمسكت الطبيبة يد الصديق المفترض وطلبت منه إيصالها إلى أقرب مقعد. جلسا وهما في حالة تشتُّت ذهني، حتى إن الصديق المفترض سأل النادل عنه، فأحضر لهما كوبين من القهوة وعدة سندويشات، ارتاحا لبعض الوقت ثم قامت واشترت دزينة من البطاقات الكهربائية، وعاودا الانطلاق حتى اجتازا مسافة لابأس بها، وبعد ٦ ساعات وصلا إلى (سوبرماركت) آخر فأكلا وشربا وسألا النادل عن مكان يأويان إليه، فدلّهما إلى منزل قريب، فاستأجرا غرفتين، ثم مضت ليلتان ولّيّا بعدها إلى بقعة مغلقة منذ أعوام ولافتة يعلوها الصدأ وقد كتب عليها، محطة الانطلاق إلى الثقب الأسود.

قبل أن تنزلق بالسيارة، سألت الصديق المفترض عن أجهزته، فأسرع يصوّر كأنه يجري مسحاً دقيقاً. دخلا إلى الحجرات ومشيا

بين الممرات ولما وصلا إلى غرفة واسعة أشبه بأسطوانة فارغة، شعرا بأرجلهما ترتفعان ثم تهبطان، خطوات حتى صارا خارجها ليدلفا إلى ممرٍّ يكاد لا ينتهي ولولا تسرُّب الضوء من فتحته لاختنقا، وما إن بلغا نهايته حتى ارتسمت أمامهما لوحة المرور إلى الحجرات، وقد توقفت الحركة فيها. وما لفت نظرهما كان مربعاً دوِّنت فيه عبارة الثقب الأسود. اتجها حسب الإشارة إلى ممرات كادت تقضي عليهما، فالعتمة والصدأ هما سيدا المكان. راح قلب الطبيبة ينبض بسرعة فساعدها الصديق المفترض وما كادا يصلان حجرة روّاد الفضاء حتى سمعا إشارة غريبة ثم صدى لأصوات. وأخيراً شعّ من فضاء الغرفة ضوء كاد أن يحرقهما ثم وقف الصديق المفترض عند فوهة الانطلاق. حدّق نحو الأعلى ثم الأسفل. تلفَّت حواليه فلم يعثر على شيء. قبل صعودهما إلى السيارة التفتت الطبيبة إلى زجاج الحائط المقابل لبرج المراقبة، فلاحظت نوراً يومض، أشارت إلى الصديق المفترض بذلك، فوقف ثابتاً محاولاً التقاط حركة الضوء.

لم تكد تضع رأسها فوق وسادتها لترتاح من عناء السفر، حتى ذهبت في إغفاءة شاهدت فيها ممراً طويلاً في آخره نور وفي داخل النور شبح بقامة سامي الطيار. وفي لحظة مناداته، وجدت الروبوت يهزها من كتفها، فاستفاقت مذعورة، وتكررت الصورة ذاتها لليالٍ عدة فاستعانت بعلمها على تفسير الضوء، فوجدت أن الإنسان عندماً يعجز عن حلّ مسألة ما، يجد نفسه عندما يستلقي، في ممر أسود ولمعان يومض في آخره، ورأت أنها إشارة بدء استراحة العين، لكنها في

الليلة الثالثة رأت سامي في حلمها نائماً في شقّة الشقراء يتقلب والهواء يتلاعب به يحمله تارة ويرميه تارة أخرى كطابة تدور ولا مستقر لها، وبدا عارياً ببشرة بنّية وشعر أسود منفوش وعينين صغيرتين تشعان ألواناً متماوجة بين الأحمر والأزرق والأصفر، ويداه استطالتا حتى بلغتا أوراق الشجر، فيما حذاؤه المسمّر في قدميه تدلّى على غصن شجرة جوز، وظَهَرَ بداخله كرتا نار تتوهجان كقرص الشمس، وأمامه تأهبت كتل لأحجام مختلفة من الروبوتات كانت تقترب منه بحذر، وهو يتطلع نحو غيمة على شكل سفينة فضاء، ويتمتم بعبارات غير مفهومة، ويرسم بيده إشارات سيميائية.

قبيل الفجر قادت سيارتها بوصلتُهما حلم الليل. ركنتها جانباً ثم وقفت تتأمل المساحة الخضراء، لَم تجد شيئاً ملفتاً، فاستعانت بالفضاء، لتشاهد غيمة خجولة تحاول الفرار من أول خيط فضّي. هزت رأسها إلى القمر وانسلّت إلى سيارتها، تلامس المقعد الجلدي. حركها الشوق إليه، حتى وجدت نفسها داخل كوخه، جلست ورائحة حضوره تسلّيها، تتحسس جسداً غائباً، فيتراءى أمامها مستلقياً ويده على رأسه يداعب بإبهامه شعر رأسه وكأنه يوقظ فيه شيئاً منسياً، وأثناء إغلاقها الباب سمعت أنيناً خافتاً، فاستدارت نحو المصدر، وكانت كلما اقتربت من شجرة تسمع بداخلها ما سمعته، وعندما بدأت النغمة تأخذ طابع اللحن راحت أوراق الشجر تصفّق، والأغصان تتمايل، فجمدت وكاد يغمى عليها، ولولا نباح الكلاب لظنت أنها مازالت في الحلم.

في السيارة، قبل أن تدير محرّكها، مسّدت رقبتها مرات عدة قبل أن تلمع في رأسها صورة شاهدتها في الكوخ، فظهرت لها جميلة تشير حسب ما فهمتها، إلى رحلة إلى القمر. فعادت إلى الكوخ وما إن تأكدت من الأمر حتى عرجت مباشرة إلى إدارة العلوم والطبّ ووضعت اللجنة في الجوّ، وتساءلت:

- لماذا اختار محطة القمر؟

أجاب رئيس اللجنة:

- ألم يقل إنه جاء من القمر الأزرق؟

ردّ الصديق المفترض:

- لماذا لم يسأل أحد عنه؟

علق مدير الإدارة قائلاً:

- ما بكما، أنسيتما أنه تائه وليس لدينا أيّ معلومات عنه سوى ما توصّلنا إليه بشأن جيناته.

ردّت الطبيبة: كل الدلائل تشير إلى أنه يبحث عن ذاته؟

تساءل مدير الإدارة: أتعرفان. كان علينا إخضاعه لزراعة شريحة إلكترونية.

❖ ❖ ❖

٧

أثناء خروج النادل من المقهى شاهد سامي يسير ملتصقاً بالحائط ناداه وسأله هل يمكنه المرافقة. رحّب سامي بعد تردّد، فوصلا إلى بيت قديم يتألف من طابق واحد، تسلّقت على جدرانه الحشائش وبدت حجارته قديمة، لم تمسّها يد الإنسان منذ فترة طويلة، في حين، وكالعادة وجد النادل صعوبة في فتح الباب، فأزيزه وصل إلى مسامع الجدّة التي تصدرت المدخل على كرسيها النقال.

نظر إليه النادل وقدّمه

نظر إليه النادل وقدّمه إليها. حرّكت كرسيها وتقدمت منه سائلة عن اسمه. أجابها بأدب ظاهر. بعدما رحّبت به، شعر سامي الطيار بانجذاب نحو جدّة النادل، فجلس بقربها متأملاً عينيها اللتين مازال بريقهما لامعاً على الرغم من التجاعيد التي غضّنت الجلد واستوطنت الرقبة واليدين، سائلاً إياها عن أخبار المدينة، فراحت تحدّثه. فسألها عن أيام الغبار الذي لف المدينة من أولها إلى آخرها:

– فردّت: ياه، تلك الفترة، كنت صغيرة.

صمت ولم يجب.

ولما اجتمعا في صباح اليوم التالي، أخبره النادل أن الوسائط نشرت خبراً عن اختفائه، فسأله عدم إبلاغ جدّته بالأمر، وإذا كان باستطاعته البقاء.

فسأله النادل: هل تخاف من شيء؟

أجاب سامي: كلا.

لم يلاحظ النادل غربة سامي إلا حين استضافه في منزل جدّته. لازم سامي جدّة النادل، وفي صباح اليوم التالي أعانها على الخروج إلى الباحة الخارجية، فكانت كلما دار دولاب كرسيها خطوة، يدور بها الزمان خطوات إلى الوراء وتروح تسرد لسامي الطيار أخبار الماضي، وهو يسجل كل كلمة تلفظها، ولما سألها عن مدى معرفتها بالحديقة العامة، تبرّع حفيدها بالإجابة قائلاً:

- إنها لم تخرج منذ فترة طويلة.

ردّ سامي: - هل تحبين رؤية المدينة؟

ضحكت وقالت: أتمزح معي، ألا ترى الكرسي؟

سامي: لا عليك.

النادل: دعكَ من هذا الأمر.

سامي: لنحاول.

ردّ النادل: لا أعرف ماذا أقول لك، ولكن ما الذي دعاك إلى طرح فكرة الخروج؟

سامي: أتعرف، صباحاً عندما ذهبت إلى عملك، رأيتها فرصة لإخراجها إلى باحة الحديقة، فشاهدت في عينيها ما يشبه الماء.

النادل: تقصد الدمع.

سامي: إذن الدمع يساوي الماء؟

تأكد النادل أن لدى سامي شيئاً إنسانياً وهذا ما جعله يقترب منه وقال في قرارة نفسه، ليتصرف مثلما يشاء، فأنا أشعر بشيء مماثل تجاهه.

تولّى النادل الذي طلب يوم إجازة قيادة السيارة وبجانبه جدّته وفي المقعد الخلفي جلس سامي. كانت الجدّة مدهوشة بما ترى، وحالما وصلا مدخل المدينة لجهة الحديقة العامة، أشارت إلى حفيدها إنزالها من السيارة، فأذعن لطلبها، ودار بها حول السياج الخارجي فيما ظلَّ سامي مختبئاً يراقب دولاب الجدّة، حتى وصلت إلى جوار منزل العجوزين فتوقفت، وكأن آلة الزمان بدأت تدور إلى الوراء، وبحركة لا إرادية غزلت الدولاب مجدداً عائدة إلى السيارة.

استلقى سامي الطيار بجانب الجدّة، منتظراً ولو كلمة عن سبب دوران دولابها إلى الوراء، إلا أنها فاجأتهما بطلب إدخالها إلى الحديقة العامة، ولم تكد تمرّ أمام سورها حتى خاطبت سامي قائلة:

- أتعرف يا بنيّ، لقد اختفت كل معالم المدينة بعد كارثة الرماد،

الناس ماتوا اختناقاً بسبب صعوبة التنفس، المياه استحالت إلى ما يشبه الطين، البيوت ضاع أثرها، إنما مازلت أذكر ذلك البيت العتيق الذي كانت تتصدره بركة ماء، وبابه خشبي وله مسكة يد يُدَقّ بها فيصدر صوت يصدح في الأرجاء، والدار واسعة مرصوف مدخلها بالبلاط وتزين ساحتها شجرة رمّان فيما اصطفت إلى الناحية الشرقية قفران النحل التي كانت تعايش أهل الدار. ماذا أخبرك يابنيّ، لقد تغيرت الحياة، عندما كنا صغاراً، كنا نلعب أمام الدار واليوم اختفى كل شيء.

❖ ❖ ❖

٨

سمع سامي الطيار طَرْقاً على الباب، فلما قام ليستطلع القادم وجدها أمامه، فخاطبته قائلة:

- هل فاجأتُكَ؟

ولما صارت بالداخل اقتربتُ من الجدّة وسلمت عليها معرّفة بنفسها، بينما سامي ضاع بين الوهم والحقيقة، فلم ينتبه إلى خروجه مع الجدّة، لذلك كشفت الأجهزة مكانه، أما الطبيبة فتذرعت أن الصديق المفترض هو الذي أخبرها.

في اليوم التالي لحضور نور، سقط المطر بغزارة مما دفعه للجوء إليها وقد رحّبت به أَيَّما ترحيب وفاجأها خوفه من المطر الذي لم يتوقف لمدة ثلاثة أيام، فقامت فوق رأسه، تغطيه ساهرة على شفائه، وسمعته يتلفظ بحروف وأرقام لم تفهم منها شيئاً، ولما ازدادت حالته سوءاً نقلته إلى المستشفى فوجدتها الموظفة الأربعينية فرصة لرعايته في القسم المخصص لمرضى الحالات الغريبة، وهو مستسلم لا يرى سوى صورة الجدّة وهي تدور بدولابها إلى الوراء وتخبره عن المدينة القديمة، وهو في فراشه، رأسه يدور ولا يستقر، واستُنفر الأطباء لمراقبته، وعمل العلماء على تحليل الأرقام التي يتفوّه بها، وحاولوا استعمالها في فكّ شيفرة جهازه الشعيري، وأُخضع جسده للتصوير.

لم تلاحظ الطبيبة أي شيء في الصور، إلا عندما أشار طبيب الجهاز العصبي إلى خيط رفيع جداً موصول بين النصف الأيمن من الدماغ والنصف الأيسر منه، عندها علّقت الطبيبة قائلة: ياه، ماهذه الدقة؟

ردّ الطبيب: هل شاهدت إصبعه؟ انظري ألا ترين تلك الشعيرة الدقيقة، يبدو أنهما جهازان، وكل له وظيفة محدّدة. وتابع: تعرفين يا زميلتي أن نصف الدماغ يتحكم بالقسم المعاش من الجسم فالأشخاص (اليمينون) يتحكم قسم الدماغ الأيسر بكتابتهم وكلامهم، لأنهم يستعملون اليد اليمنى والعكس هو الصحيح، وهناك أعسر بنسبة واحد من كل عشرة. فالنصف الأيسر ينتج المهارات الإبداعية- الفنية- العواطف الخ، بينما الأيمن ينتج الأفكار المنطقية الخ، وكلاهما يرتبط بألياف عصبية.

تدّخلت الطبيبة قائلة:

- إذا كان دماغه يعمل بشكل سليم، ما الداعي إلى زرع جهاز كمبيوتر في الألياف العصبية؟!

- ربما هو جهاز نانوي يسرِّع عملية قراءة الأفكار.

أطلقت الطبيبة زفرة وقالت: ياه، لقد تذكرت، ألا تعمل الإدارة على زرع شرائح إلكترونية في جسم الإنسان؟

ردّ الطبيب: هذا من اختصاص الإدارة!

- أتعتقد أنها لقراءة الأفكار؟

- حسب معرفتي هذا ما يتم العمل عليه.

عادت الطبيبة إلى شقتّها تجالس أفكارها المبعثرة، ثم قامت وحدّثت مطولاً الصديق المفترض وألحت عليه الحضور، فلما وصل أخبرته بموضوع الجهازين اللذين وجدا في إصبع ودماغ سامي. وأثناء استرجاعهما للحوارات التي جرت معه، لاحظا أن العجائز لابد لديهن أخبار ما، فاتفقا على زيارة الجدّة والعجوزين.

وهكذا تواعدا صباح اليوم التالي على زيارة الجدّة من جديد، التي رحّبت بهما وسألت الطبيبة عن الشخص القادم معها، فرفعت الطبيبة صوتها معرّفة بالصديق المفترض.

فأجابت الجدّة وقد وضعت يدها على أذنها اليمنى:

- لم أسمع

فاضطرت الطبيبة إلى إعلاء صوتها:

- إنها يا جدّتي الصديق المفترض.

- آه، الصديق المفترض.

- وأين سامي؟ وراحت تنادي سامي، سامي.

ردّت الطبيبة: سيحضر، سيحضر، إنما أريد أن أسألك يا جدّتي، لماذا أخذك إلى الحديقة العامة؟

- أخذني، ياه، لقد تذكرت. أتعرفين يا ابنتي البيوت القديمة اختفت تماماً، وخصوصاً ذلك البيت الحجري القديم؟

انطلق لسان الجدّة في قصّ حكايات الماضي، وكيف كانت والدتها تأخذها إلى المدينة لحضور فيلم، أو شراء حاجيات من السوق العتيق.

- أليس لديك صور؟

- يا ليتني يا ابنتي متُّ، ولم أَشهد تلك الأيام الصعبة.

تدخل الصديق المفترض وسألها:

- هل صحيح أن البيوت القديمة تحولت إلى كومة من القش تحت تأثير الرماد البركاني؟

- لا تذكّرني.

- أليس لديكِ أقارب أو إخوة؟

- ليس لدي سوى حفيد، أما أهله فقد فُقدوا بالرماد البركاني.

تركاها تسترجع الماضي وغادرا. وقبل وصولهما إلى الإدارة، عرّجا على المقهى، فلما شاهدهما النادل، سألهما عن سامي الطيار.

فردّ الصديق المفترض: إنه بخير.

- هل صحيح أنه مريض؟

- لا بأس عليه.

- هل أستطيع زيارته؟

- في أي وقت تشاء.

- شكراً.

وقبل أن يدير ظهره، سألته الطبيبة:

- متى تنتهي خدمتك؟

- الخامسة مساءً.

- كل يوم؟

- لا، اليوم فقط.

- حسناً سأمرّ عليك.

الخامسة مساءً كانت تقف بسيارتها الحمراء، وبرفقتها الصديق المفترض، فلما شاهدته طلبت إليه الصعود، فاعتذر قائلاً: لدي سيارتي.

ركنا سيارتيهما قرب سور الحديقة العامة ونزلا يتمشيان حتى وصلا قريباً من منزل العجوزين فسألته بتهذيب:

– كلنا صار يعرف جانباً من شخصية سامي.

تدّخل الصديق المفترض وقال: وإنه ينتمي إلى هذه البلدة ومن عائلة الطيار.

ردّ النادل باستهجان: إذن هو مثلنا من هذه المدينة؟!

الصديق المفترض: هذا صحيح.

النادل: لكن لماذا هو تائه؟

الطبيبة: ألا تذكر الصورة؟

النادل: كيف، لا أذكرها، كلما وقف أمامها أحسّ أنه يحدثها.

الطبيبة: هل لي بسؤال؟

– تفضلي.

- هل تنزعج إذا سألتك عن سبب إحضاره جدّتك إلى الحديقة العامة؟

- أبداً، كل ما أعرفه أنه فاجأني بإحضارها، أو بالأحرى بإخراجها من المنزل، ولم أعرف إلى الآن سرّ انجذابه إلى جدّتي؟

غادر سامي الطيار مستشفى إدارة العلوم والطبّ بعد أن تماثل للشفاء، وغاب عن عيني الممرضة التي رافقته حتى الباب الخارجي واضعة نفسها تحت تصرُّفه، لكنه لم يتصل بالطبيبة نور التي انزوت في شقّتها تسترجع ما مرّ معها وتحاول ربط الصور بعضها ببعض، وتتساءل في قرارة نفسها كيف يستشعر الحاضر ولا يتذكره. بقيت ليالي تجالس نافذتها تراقب حركة السير، فربما توقفت سيارة ونزل منها، لقد أعياها سامي الطيار فراحت تبحث عن نظارتها لعلّها تسلّي وحدتها ببرنامج ثلاثي الأبعاد، فتتخيل نفسها في داخل المشهد وتغيب عن واقعها، لكن أصواتاً جعلتها تحمل قدميها، وما إن دلفت إلى المطبخ حتى وجدت الروبوت جالساً أمام صفحة الكومبيوتر، يلمس أرقاماً، عندما شاهدها أشار لها بقراءة الأرقام. لم تفهم حركته، فتركته وعرّجت إلى غرفتها فلحق بها وهو يردّد ٧٥ ١٩ . تعجبت الطبيبة من تكراره الملفت للأرقام فحفظتها، ولما دوّنتها على جهازها النانوي لم تعثر إلاّ على تاريخ الدمار البركاني.

عاودتها الحيرة، وازداد وضعها سوءاً فطلبت من الإدارة إعطاءها إجازة لمدة يومين. فاستقلت سيارتها وتوجّهت نحو منطقة جبلية،

ونزلت في فندق مطلّ على واد عميق، فصارت تقضي نهارها في التنزه. وفي المساء، بينما كانت تبصر من شرفة الفندق انحدار التلال والتواء الطرق، شعَّ ضوءٌ بعيد، تبعته أضواء عدة راحت تعلو ثم تهبط وبدت أشبه بتحليق صحن طائر، فبادرت إلى تصوير ما جرى والاتصال بالإدارة التي أفادت أن إدارة الطيران لا علم لها بأن صحناً أو ما يشبهه اخترق المجال الجوي لمدينة الغبار. احتارت الطبيبة وخاطبت نفسها، هل أصدّقهم أم أصدّق عيني؟ فعزمت على اكتشاف ما يجري، إلا أن هبوط الليل جعلها تعدّل فكرتها، فاتصلت بالصديق المفترض ووضعته في الصورة، فحضر فوراً، لينطلقا صباح اليوم التالي نحو موقع الضوء. قطعا المسافة الأولى دون تعب ، ولما حاولا تسلُّق الجبل شعرا بالإرهاق فارتاحا قليلاً وتابعا السير يحدوهما الأمل بالعثور على آثار ما . وبدا لهما أن المُهمة يسيرة، وما إن وصلا إلى الأعلى حتى اصطدما بتلة أخرى، ما دعا الصديق المفترض إلى التعليق:

– ألا ترين أننا علِقنا؟

– كيف، انظر!

وأرته من جهازها المرئي الموقع، فالتفت حواليه وقال:

– هذا صحيح، إن الشجرة في جهازك، موجودة في أعلى التلة تلك، ولا أعتقد أن لدينا القدرة على الصعود أكثر.

حدّقت في وجهه وقد انتابها القلق وتساءلت:

– ماذا نفعل؟

- ببساطة، نعود أدراجنا، ونتصل بالإدارة فربما تواصلت مع إدارة الطيران وأرسلوا مركبة تستكشف الموقع الذي صوّرته، أو نستعين بقمر ستار الموضوع في خدمة مدينة الغبار البركاني.

يوم الأحد، جاءها اتصال مفاجئ من الإدارة، تبلغها فيه مشاهدة سامي الطيار داخلاً إلى بيت العجوزين، فغادرت شقّتها باتجاه الشارع الرئيسي، وما إن وصلت إلى مفرق الطرق، حتى شاهدت عدداً كبيراً من السيارات. استغربت الأمر، خصوصاً وأن سيارة مدير الإدارة كانت بينها . حين خلت وجدت فعلاً المدير مع الصديق المفترض يستمعان إلى أقوال العجوزين وهما يشرحان لهما أن الشخص الذي كان يقصدهما باستمرار زارهما ليلاً مودّعاً .

ردّت الطبيبة باستغراب: ماذا؟

أجاب الصديق المفترض بأعصاب هادئة: ربما جاؤوا من أجله؟

مدير الإدارة: لكن إدارة الطيران، لم تعثر على أي أثر للصحن الطائر.

هبّت نور واقفة بعدما سمعت كلام المدير وهي مازالت تردّد : أنا متأكدة أنهم جاؤوا من أجله؟

ثم قامت وخبأت وجهها بين يديها خوفاً من مشاهدتهم للدموع التي بلّلت خديها .

عندها علّق الصديق المفترض: يبدو أننا لم نُحْسِن التعامل معه.

انزوت نور كعادتها قرب نافذتها في الشقّة تحدّق في الفضاء المزدان بالغيوم وهي ترمي آهة للمغادر دون وداع، وبينما هي في خلوتها سمعت من جديد الروبوت يذكر الأرقام ٥-٧-٩-١، فالتفتت لتجده واقفاً أمامها منتظراً إشارتها، لكنها اقتربت منه وطبعت على خدّه قبلة وغادرت فوراً إلى إدارة العلوم والطبّ. لم يصدّقها أحد. رمَوا أرقامها جانباً، وتركوها بحراسة الصديق المفترض تعالج، برأيهم، هلوستها وحدها. شعرت الطبيبة بالانزعاج، وبمجرد عودتها مساءً إلى شقّتها، راحت تخلع ثيابها والروبوت وراءها يلتقطها قطعة قطعة. في الحّمام عبقت رائحة عطر فوّاح، فاستكانت وتمددت والماء يغمرها حتى عنقها، أحسّت بالنعاس، ولم تكد تغمض جفنيها، حتى وجدت نفسها ممددة في سريرها والروبوت يبصر حالها، فأشارت إليه بالخروج، ثم قامت إلى المرآة تجمِّل وجهها، تغطّي جسدها، تسرّح شعرها الأسود الليلي، وتخطُر بردائها الوردي جالسة إلى النافذة تراقب أوراق الشجر الذابلة في نهاية أيلول، وتردّد في داخلها:

هل فعلاً جاؤوا من أجله؟

وبينما هي في شرودها، جاءها اتصال خفّف عنها قلقها، فقد أخبرها النادل أن سامي زاره في المقهى.

ردّت بانفعال وعدم تفكير: وضِّحْ، ماذا قلت؟

قلتُ لك لقد زارني في المقهى.

أمتأكد أنت؟

نعم، وأنه سيمرّ عليكِ قبل سفره.

ياه، ما رأيته كان صحيحاً إذن!

ماذا قلتِ؟

لاشيء، وشكراً على إخباري.

راحت تردد، هل فعلاً انتهت زيارته، وهل هو فعلاً من القمر الأزرق، كيف جاء إلى المدينة. وبأي وسيلة؟. ولماذا عجزت الإدارة عن رصد خطواته،؟ ازداد قلقها، وارتبكت، وهي منتظرة زيارته بين لحظة وأخرى حتى صار ليلها نهاراً ونهارها ليلاً، وازدحمت الأفكار في رأسها، واختلطت عليها الوقائع بالأوهام، أحقاً سيأتي؟ ومتى! ولماذا يخاف الظهور؟ هل استاء من تصرُّفات المسؤولين؟! أسئلة كثيرة تشابكت في رأسها، فاستنجدت بجهازها، علّه يمدُّها بأجوبة محددة. عبثاً حاولت، فعادت إلى وحدتها وشفيعتها الروبوت الذي يلاحقها أينما جلست، وتمنّت لو كان بشرياً لشكت إليه، وأفرغت ما في جعبتها، لكنها اعتصمت بالصبر رغم وهم الانتظار. خطر لها الاتصال بالنادل لتسأله عن موعد زيارة سامي، إنما عدلت عن الفكرة لأنها شعرت بلسعة برد. تدثرت بردائها وطلبت من الروبوت

تدفئة غرفة نومها، فانتصب وقال: آخر أيلول، الأحد، الساعة الثامنة مساءً، الحرارة ٢٤. بعدما أسمعته الدرس مجدداً، حملها إلى سريرها وجسدها يرتجف، أخفت رأسها وتكوّمت فانتظر الروبوت أن تطلب منه شيئاً، لكنها غفت. وفي العاشرة ليلاً استجمعت قواها، وأزاحت الغطاء عن رأسها، وما إن نادت بصوت مبحوح حتى صار كوب الماء بين أصابعها، شربت حاجتها دون أن تلتفت. قبل أن تغطي رأسها، طلبت من الروبوت الاتصال بالصديق المفترض، لكن الصوت الذي سمعته جعلها ترفع رأسها لتفاجأ بسامي الطيار والصديق المفترض أمامها، فهبّت مذعورة تلعن حضورهما قائلة:

- أتريدان قتلي!

ردّ الصديق المفترض: أنا الذي أقنعته بالحضور.

لم يكد ينتهي من عبارته حتى بدأت تقذفهما بما طالت يداها، فهربتا وراحت تكيل لهما اللعنات، حتى اختنق صوتها، فانتظرا قليلاً ثم دخلا على رؤوس أصابعهما، ليجداها تبكي والدموع تبلّل خديها. تقدم منها الصديق المفترض وحاول تهدئتها، فرفعت رأسها قائلة: ابتعد عني.

ثم تطلعت ناحية سامي وخاطبته:

- ما الذي جاء بك؟

ردّ الصديق المفترض: أنا أحضرته.

اسكُت أنت.

ثم تطلعت ناحية سامي وخاطبته قائلة: هات أخبرني، ما قصة سفرك؟

في هذه اللحظة، سمعوا الروبوت يردّد الأرقام ٥-٧-٩-١ والطبيبة تدثّر جسدها بالرداء ثم تقف على قدميها، فعلّق الصديق المفترض قائلاً:

- ألستِ مريضة؟

ردّت بانفعال: قلت لك اسكت.

ثم جذبت سامي من قميصه وجرّته إلى المطبخ والروبوت مازال يردّد الأرقام ذاتها، وسألته:

هل تخبرني ما قصة هذه الأرقام اللعينة؟ هل لي أن أعرف ولو لمرة واحدة من أنت، هكذا بصراحة ودون مقدمات، هل تعتقد أن الإدارة غافلة عنك، لا يا صديقي؟

أحسّ الصديق المفترض أن الطبيبة بدأت تفقد أعصابها، فسارع إلى تلطيف الأجواء قائلاً:

لا أظن أن سامي لديه أجوبة يا نور، وإلا ما سبب كل ما يقوم به، هدّئي من روعك ولا تقسي عليه، فربما اختفى هذه المرة إلى الأبد .

استدركت قائلة: ربك، يفعلها، وهاهو يهيئ نفسه للسفر.

- ربما!

- إذن...

- ماذا، إنه مازال يبحث عن شيء ما!

عندها نظرت ناحية سامي الذي بقي صامتاً طوال الوقت وسألته:

- أما زلت تبحث؟

- نعم.

- وعَمَّ تبحث؟

صمت ولم يجب.

- هل تبحث عن مكان، عن شخص، عن الخ.؟

حكّ رأسه حالما سمع مفردة مكان وقال:

- شقة، منزل، بيت، كوخ، غرفة مستشفى.

- أعرف أن هذه المفردات تدلّ على المكان، إنما أي مكان تقصد؟

راح يردّد: البيت هو للسكن، الحديقة العامة للتنزه، الشقة للسكن، الغرفة للسكن، الإدارة للعمل الخ...

عاد صوت الطبيبة يرتفع: يا سامي، أعرف كل ما قلته، ولكن ركِّز معي رجاءً!

تدخّل الصديق المفترض: شقّة نور.

ردّ سامي: لها سقف.

أجاب الصديق المفترض: كل المنازل لها سقوف، وإلا كيف نحتمي من المطر والريح والحرّ والزوابع، والبرد. ثم اقترب من النافذة وقال: ياه إنها تمطر.

تذكرت الطبيبة أن عيني سامي تنغلقان كلما هطل المطر أو تبلّل بالماء، لذلك سارعت إلى إمساك يده، وأعانته للجلوس على الكنبة فيما يده انشغلت في حكّ جلدة رأسه، وما هي إلا ثوان حتى أغمض عينيه، وصارت تخرج من فمه مفردات كرّرها أكثر من مرة، ثم أطلق صرخة أخافت الحاضرين.

أُدخل سامي إلى غرفة الاتصال الذكي، فيما الطبيبة والصديق المفترض جلسا وراء الزجاج، يراقبان صراخه الذي لم يتوقف، بينما جهاز مراقبة الرأس سجَّل أرقاماً متعددة ومتباعدة.

استُنفِر علماء المركز لسبر غور الأرقام التي سُجِّلت، فلم يعثروا على ما يَفيدهم. وبدا سامي بعد توقُّف صراخه كالرخام، إذا حادثه أحد لا يجيبه، حتى الطبيبة لم يبدِ تجاهها أي ردّ فعل، ولما حاولت تقبيله، أشاح بوجهه. هالها وضعه فَاستنجدت بالأطباء الذين لازموه ليل نهار، ولم يوفقوا في قراءة حالته، فازداد استياؤها. أصرّت على إعادة تصويره، فحضر الأطباء بناءً على طلبها وبعد أن تشاوروا فيما بينهم، أقرّوا بضرورة إخضاعه للتصوير وجاءت النتيجة غريبة، فالشعرة التي في إصبعه تحوّل لونها إلى الأسود فيما كانت في الصورة السابقة تشعّ باللون الأصفر، وكذلك شعرة الدماغ التي مالت بدورها إلى اللون البنيّ. تعجّب الأطباء، مما رأَوا، فعقدوا اجتماعاً مع أطباء في أكثر من اختصاص، مثل النانو تكنولوجيا، طبّ الأعصاب، شرايين الرأس وعلم الألوان، فأدلى كل بدلوه، ووضعوا الطبيبة أمام احتمالات عدة، ما زاد في قلقها، وما إن عادت إلى شقّتها حتى استدعت الصديق المفترض الذي حضر مستفسراً، فأعلمته بما جرى، وأنها ضاعت في تفسيراتها. وحين حاول الكلام طلبت منه الاستماع، وتابعت، يا صديقي لا أعرف من أين أبدأ وراحت تذرع شقّتها يميناً وشمالاً والروبوت يراقبها، والصديق المفترض منتظراً إشارتها. فجأة التفتت إليه وقالت:

- دعنا من الحديقة العامة والمقبرة.

- موافق.

- دعنا من الجدّة والعجوزين.

- موافق.

- لنتحدث عن الضوء الذي يشعّ في إصبعه.

- حسناً.

أجاب الروبوت: عَطَبٌ في البطارية، ونقصٌ في الضوء.

لم يكد ينهي عبارته حتى ساد صمت طويل.

بعدها استقلت الطبيبة إلى أريكتها ووضعت رأسها بين يديها وراحت تردّد: غير معقول.

أجاب الصديق المفترض: ربما!

هكذا بكل بساطة، لأن الروبوت تلفّظ بها، لا، هناك ما هو أبعد من ذلك، صحيح أن الطاقة تتوقف بعد نفاد شحنتها، فهل هو يا صديقي مشحون؟ وهل جسده مركّب؟

- هدئي من روعك، ألم يسأل عن العام الذي نحن فيه؟

- وما دخل الذاكرة هنا؟

- كيف؟ إنها الأساس.

– في الاستنساخ لا توجد ذاكرة، لأنها اكتساب، فالإنسان، يكتسب ذاكرته وهي ماضيه، وهو كما يبدو جاء يبحث ربما عن شيء واقع في الماضي.

– تقصدين أيضاً ذاكرته؟

– أفهم أن الضعف بالمفهوم العلمي ينتج عن نقص في شحن البطارية، وهنا ربما جهازه قد ضعف.

– هذا وارد كما يبدو، ولم يعد احتمالاً، والسؤال كيف نعيده إلى وضعه؟

– ياه، أتتذكر قصة اختبائه؟

– ما بها؟

– ألا تذكر لجوءه إلى الحديقة العامة؟ ثم كيف يعقل ألا نراه ضمن المساحة الدائرية، وما هذه المساحة البيضاء، ألا يعقل أنها ملجؤه؟

– ياه، كم أنها ذكية، ما رأيك لو نحمله إليها؟

– هذا رأيك؟

– لنجرّب.

– علينا أولاً استشارة الإدارة والأطباء.

لم يغادر سامي المستشفى، والإدارة رفضت طلبهما، فعادوا شرح وجهة نظرهما، ومع ذلك جاء الجواب سلبياً، فانصرف كل إلى عمله، ومضت ثلاثة أيام وهي أكثر من المدة المتوقعة، وخرج سامي وحيداً، يتجنب محادثة الناس، يسير بجانب سور الحديقة العامة، ومن البعيد يراقب الحركة، وهو لا يلوي على شيء، ثم يعود إلى مبنى إدارة العلوم والطبّ. إلا أنه خرج ذات صباح ورأسه يهتز فوق جسده، وظلّ يمشي حتى وصل إلى بيت الجدّة، ولم يكد النادل يشاهد سامي حتى اتصل بالطبيبة التي اتصلت بدورها بالصديق المفترض طالبة منه موافاتها.

❖ ❖ ❖

٩

عندما دخلا، شاهدا سامي جالساً إلى ركبتي الجدّة، وهي تمسّد شعر رأسه وكأنها ترقيه، أو ترنّم له ببعض الكلمات الغامضة، وهو مصغٍ مستسلم للمستها، فاقتربا منهما على مهل وجلسا مرتقبين انتهاءً هذه الخلوة. حالما شاهدهما تقدم نحوهما بثقل، فقاما إليه وساعداه في الوقوف ثم انطلقت به إلى شقّتها.

إلا أن سقوط المطر دائماً بشكل مفاجئ أرغم سامي على البقاء في شقّة نور، فطفق يسلّي نفسه بمحادثة الروبوت حتى إن الطبيبة آثرت الصمت وعدم طرحِ الأسئلة. وبعد ظهر اليوم الثالث على المطر الذي كان يتساقط غزيراً مصحوباً بزخّات من البَرَد، انقشع الجوّ، وارتفعت درجة الحرارة، فعمدت البلدية إلى إقامة مباريات، وتزاحم الناس إلى صنع تماثيلهم الثلجية كل حسب مهارته وذوقه، ووجدها سامي فرصة لاستعادة نشاطه فقصد الحديقة العامة، وهمَّه رصد المساحة البيضاء ولكنه لم يوفَّق، وقف على بعد أمتار من منزل العجوزين يرمقه بشكل ملفت، ويحادث نفسه، هل يطرق بابهما ويؤنس بحضوره وحشتهما؟ وقبل أن يخطو، اقترب منه رجل ثلاثيني طويل القامة، أسود الشعر، أجْعَدُهُ، وطلب منه الوقوف قليلاً ريثما ينجز له تمثالاً. انصاع سامي الطيار للطلب، وفي نحو ربع ساعة، شاهد تمثاله الثلجي فشكر الرجل الغريب على براعته، وتابع. وما إن ظهرت صورته على الشاشة حتى سمع العجوز يناديه:

- تفضّل الباب مفتوح.

تعانقا، كأنهما يتوقان لرؤية كلٍّ منهما الآخر فبادره العجوز:

- أين أنت يا صديقي، لم أرك منذ مدة في الحديقة العامة؟!

- أنا قادم من الحديقة العامة.

- في هذا الطقس؟

- الحرارة ، ارتفعت حسب قياس مناخكم.

بينما كان العجوز ينظر من النافذة سمع سامي يتلفظ بكلمة تمثال فاستدار نحوه وسأله:

- ماذا قلت؟

- أنا تمثال.

ضحك العجوز وقال: تقصد أنك صنعت تمثالاً من الثلج؟

ردّ سامي: هو صنع تمثالاً.

لم يعلّق العجوز لأن زوجته دخلت في هذه الأثناء مرحِّبةً بسامي: أهلاً بك لقد تأخرت في المجيء إلينا.

ردّ العجوز: دعيه، إنه يصنع تماثيل من الثلج.

السيدة: هل أخبرته؟

- بماذا؟

- جاؤوا يسألون عنه.

دعيه الآن، ولنتحدث عن الطقس.

سامي: الطقس! الحرارة ٢٥ .

العجوز: لقد بلغت من العمر ثمانين عاماً، ومازلت أرتعب من طقس المدينة، والغبار البركاني الذي حوّلها إلى جبال من الرمل.

السيدة: لا تصدقه، أحياناً يمزح.

سامي: الصقيع قادم.

تعني أن الصقيع آت قبل أوانه؟

ردّد سامي: الصقيع قادم.

العجوز: أتعني أن طقس الشتاء سيكون عاصفاً؟

سامي: البرد، الصقيع، الغبار يحجب الشمس.

تطلّع العجوز ناحية زوجته وقال: ها قد عدنا إلى الغبار.

حاولت تغيير موضوع الحديث: هل حقاً كما أخبرني زوجي، تريد أن تسافر؟

العجوز: أرى أن الجوّ لا يساعد على السفر.

سامي: الأضواء لا تلمع.

العجوز: مازالت المدينة متأثرة بالماضي.

السيدة: عفواً نسيت الكعك المحلّى.

أكل سامي الكعك المحلّى ثم قام مودّعاً. عائداً إلى شقّة الطبيبة، التي استقبلته بشوق ومشيا نحو المطبخ، ليشاهد الروبوت وهو يقوم بإعداد الطعام وسألته:

❖ ❖ ❖

- أين وصلت بجولتك؟ سألت الطبيبة:

- إلى بيت العجوزين.

وهل ذهبت لتوديعهما؟

ردّ عليهما: الكعك المحلّى.

ضحكت الطبيبة:لم أقصد التحلية التي أعجبتك في هذه المدينة.

صمت كعادته وتابع مراقبة الروبوت الذي سأله:

- ما بك ألست جائعاً؟

صمت ولم يجب.

نور: هل تشكو من شيء؟

صمت ولم يجب.

تركَتْهما وانصرفت إلى غرفتها بانتظار انتهاء الطعام، فتقدم الروبوت من سامي وحملق في وجهه ملياً ثم عاد متابعاً عمله، فيما توجه سامي نحو النافذة المطلة إلى الفضاء، ليراقب من وراء الزجاج تلك الطبقات من الغيوم التي تتزاحم مشكّلة لوحة بيضاء تغلّف بقاعاً من الكرة الأرضية وفيما هو في استغراقه، ناداه الروبوت، فلم يستجب، ناداه ثانية، وفي الثالثة اضطر إلى إخبار الطبيبة، فرأته راكعاً ورأسه إلى الأعلى كأنه يبحث عن شيء ما بين الغيوم ابتعدت عنه على رؤوس أصابعها وطلبت من الروبوت عدم مناداته. مضت ساعة وهو على هذه الحالة، فشعرت الطبيبة أن سامي ليس على ما يرام، ومع ذلك لم تقترب منه.

صباح اليوم التالي، انطلقت الطبيبة إلى عملها، وفي المساء اتصلت بالروبوت راجية إغلاق الأبواب والنوافذ جيداً، لأن عاصفة ثلجية ستضرب البلاد.

وما إن اقتربت الساعة العاشرة ليلاً حتى سمع سامي أنين أوراق الشجر، دنا من النافذة يراقب حبات الثلج وهي تتساقط لتغلِّف أوراق الشجر بثوب أبيض، ومع مرور الوقت كانت العاصفة تشتد، حتى بدت شوارع المدينة خالية من الأضواء، وبدا على سامي التعب وصار مُقلاً في كلامه وحركاته أشبه بحركات الروبوت، حتى إنه تلفظ بعبارَات غريبة، كأنه يهذي، والروبوت جامد في مكانه، منتظراً إشارة لن تأتي لأن سامي صار مثله حتى فقد بعد ساعات نصفه.

اقترب الروبوت من سامي وكانت الساعة بلغت الواحدة ليلاً، فوجده بارداً. حمله ومدّده على الكنبة، وأبلغ الطبيبة بحالته، فخاطرت مع فريق طبّي وحملوه إلى المستشفى.

أُخضع من جديد للتصوير، فتبين أن شعيراته تحوّلت إلى لون رمادي فعقد العلماء سلسلة من اجتماعات، دارت في مجملها حول كيفية مساعدته وتساءل أحدهم:

ألا يوجد عواصف رملية في القمر الأزرق؟

في هذه الأثناء أرسل لها الروبوت صوراً تبين حالته قبل نقله إلى المستشفى، ولما سمعت الطبيبة الأرقام التي نطق بها، أبلغت علماء الإدارة بذلك، فسألوا الروبوت بثّ صوره من جديد.

علّقت الطبيبة، بعدما شاهدت الصور: إن الدماغ يكشف أعماله الباطنية ضوئياً، وهذا ما توصّل إليه علم الأعصاب.

ردّ أحد الأطباء المتخصصين في أعصاب الدماغ:

هذا صحيح، لأن المنظومات العصبية، كما الحواسيب الرقمية تعمل بالكهرباء، فالعصبونات تحوّل المعلومات إلى إشارات كهربائية.

الطبيبة: وهذا الأمر ينطبق على مرضى الباركنسون.

طبيب الأعصاب: نتحدث يا زميلتي عن فَرْق كُمُون، وهي تغيرات كهربائية تحدث في غشاء الخلية، استجابة لمنبّه مناسب يمكن عند حدوث فعل إطلاق ناقل عصبي، انقباض عضلة، إفراز هرمون، وعندما تولد تغيرات كهربائية تنضج قنوات غشائية، تسمح بدخول إيونات كلسية إلى الخلية، وهنا نتحدث فقط عن إلكترون خاصّ.

الطبيبة: إذن، نفهم أن الشحنة الكهربائية هي للمرضى.

– نعم، ولكن مريضك سامي متفوق علينا في دماغه، وهو آلةٌ وليس إنساناً. وخموده ناتج عن بداية فقدان الطاقة لديه.

– ألا تعتقد أن المطر أثّر عليه؟

- إن الصور التي بثها الروبوت تبيّن حاجته لردّ الطاقة.

- إن حالته غريبة.

- لآن الآلة لا تتأثر، ولا يرشح عنها تأوهات أو ما يشبه الألم.

- رأينا منه الجانبين الإنساني والآلي، أيهما برأيك يا زميلي هو سامي الطيار؟

كلا الاثنين معاً.

قطع مدير الإدارة حديثهما قائلاً:

- الآن، ماذا علينا أن نفعل، هل نتركه على حاله؟

الطبيبة: أرى أن نعمد إلى تفسير الأرقام التي التقطها الروبوت قبل البتّ بوضعه.

تركتهما نور وتوجهت حيث يرتاح سامي، فجلست قبالته، فلما رآها خاطبها قائلاً:

أرى دموعاً في عينيك.

خبّأت نور وجهها، وقالت:

- ياه، هذا تقدُّم رائع.

انشغلت بجملته، كيف لا، وهي من المرات النادرة التي يتلفظ فيها بمفردات حساسة، فانفرجت أساريرها ولشدة فرحها، نفرت الدموع ثانية من عينيها. وخوفاً من أن يراها، أشاحت بوجهها، فسارع إلى رفع يده وراح يداعب شعرها الأسود الليلي، فنظرت إليه بطرف عينيها وحاولت قول شيء، لكنه سبقها قائلاً:

- الدموع، مطر، ماء.

رأته يصوّب عينيه باتجاهها وكأنه يبحث عن شيء ما فسألته: هل تحاول قراءة دماغي؟

- نعم.

- لا تتعب نفسك.

لاحظت الطبيبة شروداً في عيني سامي الطيار فاقتربت قائلة:

حاول يا سامي أن تساعد نفسك، وأخبرني ما قصة الأرقام التي تهجس بها؟

بعد أيام هدأت العاصفة ما ساعد سامي على تحريك رأسه.

جال سامي ببصره في أرجاء الغرفة، إلى أن وقع على نافذة مقفلة يتسرب منها ضوء خافت، يلمع ويخفت، ثم يلمع ويخفت واستمر على هذه الحالة قرابة نصف ساعة، والطبيبة متسمرة مدهوشة بما ترى،

حتى اشتد وهج الضوء، فخافت واختبأت، وأخيراً شعّ وحوّل الغرفة إلى قرص شمس، ثم بدأ بالانحسار إلى أن خفت الضوء كلياًّ.

سمع سامي حركة فبحثت عن المصدر ليجد الطبيبة تحت السرير ترتجف من الخوف.

أطلّت الطبيبة، وراحت تسأله الكفّ عن تصرفاته، ولم تهدأ إلا حين فسّر لها ما جرى. عندها استدركت خطأها، وعادت إلى الجلوس قبالته، وهي تفصح له عن هواجسها، وهو إليها مستمع يراقب حركة شفتيها وعينيها، ولم تدرِ كيف خرجت من فمها كلمة السفر، وتابعت:

- أتعرف يا سامي، لقد شاهدت مركبة فضائية أثناء إجازتي في الجبل.

رفع رأسه وقال: مركبة فضائية، آه الأضواء.

- ربما لديها مشاريع على أرضنا؟

ردّد مفردة مشاريع مرات عدة ثم حكّ جبهته وقال:

- الصورة ناقصة.

- هل تعي صورة المقهى؟

- الصور، الأرقام.

أتعرف يا سامي، كلما وضعت إصبعك على الجرح، يأتي شيء مثل الضوء، ويؤجّل الحديث. مشكلتك في طاقتك، وعندما تزداد تنقاد إليها، وعندما تضعف تعود إلينا.

– ألا تعتقد أن بقاء الأرقام غامضة سيؤخر دوافعك الذاتية؟

وراحت تشرح معنى قولها، بأن الإنسان لديه مشاعر، وأنه بعكس الآلة.

ردّ: الحيوان.

– أنت لديك دوافع وأهداف، ومجيئك إلى مدينتنا وزيارة الكبار دليل على ما تبحث عنه.

– والحيوان.

– الحيوان ليس له أهداف.

– والساكن في الغرفة الضيقة.

– إذن، يعنيك الأمر، وتريد إخبارنا أن ليس لديك حشرية! أخبرني، لماذا أحضرت جدّة النادل إلى سور الحديقة؟

صمت ولم يجب.

– ألا تريد الإجابة؟

صمت.

بنبرة عالية: ألا تريد أن أساعدك؟

صمت.

- ياه، كم أنت غريب!

صمت.

- سامي رجاءً!

صمت.

غرق سامي في سريره وأغلق عينيه، ليرى في الصورة نفقاً أسود طويلاً في آخره بقعة ضوء تحمل صورة الجدّة وهي تحرّك كرسيها بصعوبة باتجاه سور الحديقة، وشاباً لا يعرفه يسير بجانبها، ولما وصلا إلى بعد أمتار من منزل العجوزين تركها الشاب واتجه إلى الغابة، ورآه يختبئ في دغل ثم يحرك إصبعه ويرسم أمامه مزيجاً من المفردات والصور، فظهر له ما يشبه اللوحة المائية، التي بدأت تفلش وجودها، وراحت تتمدد وما إن وصلت إلى مرآب المستشفى، حتى دار رأسه، وعندما فتح عينيه شاهد نور تمسح له جبهته فسألها عما حصل له.

- كنت غافياً.

- أنا .

- وأين النفق؟

نطق بمفردته دون أن يدري. تلقفتها نور وسألته:

- عن أي نفق تتحدث؟

لأوان، الصور، اللوحة، الجدّة، الغابة، اللوحة المائية. وكان يتوقف أمام كل مفردة ثم يحكّ جبهته، ويردّدها من جديد .

اتصلت نور بالصديق المفترض الذي حضر لمساعدتها في تصوير سامي، الذي بقي على حالته إنما هذه المرة راح يكرر مفردات سمعها أثناء تجواله في المدينة.

ولما وصل إلى مفردة الأضواء، التفت ليجد أن نور مازالت بجانبه ممسكة بيده، فصمت قليلاً، وقال لها : عيناك ألوان وماء.

استغرب الصديق المفترض وقال: هذا شعر.

ردّت نور: ربما ، والآن هل بدأت بتصويره؟

كل شيء جاهز.

لم تكد تضع كفها على صدر سامي، حتى أحسَّت وكأن شحنة أصابتها، فسحبتها بلمح البرق، إنما ما ارتسم بدا غريباً، وظهر على

كفها مزيج من الألوان بقي لثوان ثم اختفى، ما جعلها تدهش وخصوصاً عندما نطق سامي مجدداً بمفردة اللوحة. عندما سألته نور:

– ما قصة اللوحة، والألوان التي ظهرت على كفي؟

– أشاهد ألواناً.

– فَسِّرْ، رجاءً.

– المدينة، الصور ، ألوان، مفردات.

– هل تعني أنك تشاهد المدينة؟

– نعم، صور، وأشار إلى عينيه.

تدخّل الصديق المفترض

– عرفتُ، كان يصوِّر كل ما يراه.

– هل هذا صحيح؟

هزّ سامي برأسه.

الصديق المفترض: يمكننا رؤية ما لديك، وفي الإدارة برمجة للصور.

– والمفردات؟

ردّ الصديق المفترض: في الإدارة تقنية من هذا النوع.

- عندها تتحول الكلمة إلى صورة.

- إنما لدينا أرقام.

- تقصدين ٥-٧-٩-١ .

- نعم.

ثم التفت إلى سامي: ألا تعني لك الأرقام ٥ – ٧ – ٩ – ١ شيئاً ؟

- أنا تلفظّت بها؟

- نعم، تلفظّت بها أثناء غفوتك، ألا تعتقد أن في الأمر شيئاً تعرفه، ولا تتذكره، وربما فاتك عندما جئت إلى المدينة؟

صمت ولم يجب.

فور عودة الطبيبة إلى شقّتها شاهدت الروبوت يراقب برنامجاً تاريخياً فرمت بجسدها على الكنبة، وكانت الساعة قد تجاوزت السابعة، حيث مرت أمامها بيوتٌ فارغة من أهلها، وأحياءٌ غطاها الرماد وجثث مكدِّسة بعضها فوق بعض، والغبار البركاني ينحر الموت في كل مكان. أثارتها هذه الصور، فقامت إلى حمّامها عساها تجد فيه

ما يخفف من وطأة ما شاهدت. وأثناء تناولها الطعام أخبرها الروبوت أن سامي كان يفضّل مشاهدة البرامج التاريخية: فكّرت الطبيبة وسألته: أعدِ ما قلت.

انشغل بالها، فنامت على قلق جديد، وفَتّحٍ جديد، وراحت تحدّث نفسها، لماذا؟ وما الذي يجده في الصور كتلكٍ التي شاهدتها؟

في اليوم التالي وجدته خارج السرير، مرتاحاً، فُسرَّت لوضعه وعرفت من الإدارة، أنه تجاوز خمود طاقته، فغادر وبعد يومين عاد إلى مكتبه ونور وراءه تسرع الخطى خوفاً عليه من الشقراء لأنه قريب من مكان عملها، ومتلهفة لسؤاله عن البرامج التاريخية التي يفضّلها على غيرها، ولم تفكر أبداً أنه سيجلس وراء الجهاز النانوي، يستعلمه عن أرقامٍ وصورٍ مرّت بها المدينة، فتساءلت في قرارة نفسها، لماذا؟ ما مبتغاهٍ؟ ولماذا هو مهتم لهذه الدرجة بالأرقام، والصور التاريخية؟

تركته وذهبت إلى عملها وبالها مشغول، متمنية الدخول إلى عالمه السرّي، فيما انصرف سامي يقضي الساعات في التخاطب مع الكومبيوتر، يتبادلان المعلومات، وعندما يتعب، يعمد إلى فرك إصبعه وحاله كحال من يركِّب Puzzle إلى أن دخلت عليه نور ذات صباح وجلست قبالته قائلة:

– هل توصلت إلى شيء ما؟ هل تريد رقماً محدّداً، تاريخاً محدّداً؟

هزّ برأسه وصمت طويلاً، ثم التفت نحوها وسألها:

– تواريخ– حروب، المدينة، كارثة الرماد البركاني.

– تقصد تواريخ الحروب والكوارث التي مرّت فيها المدينة؟

هزّ رأسه.

– لدينا تواريخ ولكن الصور.

– الصور، الجدّة، العجوزان.

– هل تريد رؤيتهم؟

– نعم.

صاروا يقضون الساعات وهم يذكرون التواريخ والصديق المفترض يسجّل ماكان يجري، فيما كان يركّب سامي صوراً، وفي إحدى الجلسات علّق قائلاً: الصور غير مكتملة.

ردّت الطبيبة: لأنك لم تركّب صورة لأرقامك التاريخية.

ما إن لفظت نور التاريخ حتى اضطرب سامي على غير عادته وصار يهتز كأنه أصيب بشحنة، فتشجعت الطبيبة وحضنته، ومع

ذلك بقي جسده ينتفض، ثم مدّ ذراعيه كمن أصيب بالتشنّج، فراحت تفرك يده، ولم تدرِ كيف لمست إصبعه الذي أخفاه. ليخرج نوراً أصفر، وفجأة صار يردّد أرقاماً للتو ربطتها الإدارة بالحوادث التاريخية، لتظهر لوحة المدينة بمبانيها القديمة، تعجّب الجميع مما شاهدوه، وتركوا الأمر لحين دعوة العجائز الذين ما إن حضروا حتى جلسوا إلى الكراسي يسترجعون صور مدينتهم، ولم يدروا أنهم صاروا في قلب الصورة، وقد عادوا بأعمارهم إلى الوراء، وعندما برزت صورة بيت قديم علّق العجائز، ياه إنه بيت سامي الطيار الجدّ.

وتزاحم الحنين ومرّت دموع، واستُرجِعت ذكريات، وتأكدت الإدارة أن الماضي له خصوصية. ولنتوقف أيها القارئ، أمام باب خشبي عندما طرقه سامي سمع صريره القاصي والداني، فدخل وقد خبّأ عينيه بنظارات سوداء. وفي اللحظة التي داس فيها عتبة البيت العتيق شعّ الضوء الأصفر من جديد وأرسل ألواناً إلى الحائط استحالت إلى أرقام، وعندما قرأها الجميع، استغربوا، فعلّق العجوز: إنها تاريخ كارثة الغبار البركاني في مدينتنا، ولم يكد سامي يتخطى العتبة حتى سبقته عطسة، فانشغل بحاله يغالب الرطوبة التي وصلت إلى رئتيه، فسدّ فمه وتابع ورائحة الزمن المنسي تكاد تتلف رأسه وتمنعه من التوازن، فأحسّ لأول مرة بشيء غريب يلامس جلده، وكأن الماضي يرحّب به على طريقته، ويلفّه بذرّات متناهية، عرف عَبْر ضوء إصبعه، أنها أشكال رقمية فسّرها جهازه بعبارات الترحيب، فتساءل في قرارة نفسه، أنّى لهذه الأشكال أن تعرفني، ومن أنا؟ عرف أن رسالة الترحيب

موجهة إليه، وما كاد يضيء إصبعه حتى شاهد على الجدار صورة قديمة، لم يكد يقترب منها، حتى استطالت وتمزق إطارها، وتناثر زجاجها، وشاهد عجوزين يتقدمان ويلوّحان بأيديهما. عرف من سماتهما أنهما قريبان منه، فخاطبته عجوز الصورة: هل أمّك بخير؟

وكرّرت أسئلتها:

– أما زلت تسكن في مدينة القمر الأزرق؟

– أما زالت والدتك حزينة على اختفاء والدك؟

تراجع سامي عند سماعه الصوت، فقد كان بحاجة إلى مساحة تساعده على استنهاض وجوده، ولم يكد يلمس إصبعه حتى شاهد الصورة في إطارها معلّقة إلى الحائط، فأكمل تراجعه جالساً عند فتحة نافذة. ماإن دفع درفتها إلى الخارج حتى تسابق النور إلى الدخول بعد أن انتظر أعواماً خارج الدار. تسنّى لسامي في هذه الأثناء رؤية كتاب على طاولة خشبية مغطاة بشرشف سكّري موشّى بالأزهار، فالتقطه بين يديه، وماكاد يفتحه حتى صارت الأحرف، كما الأرقام تتراقص أمامه، كأنها مشتاقة لمن يقرؤها، يلمسها، فقد ذبلت الأوراق جفّ مدادها، وعطّل الغبار وجودها، وهي بانتظار هلاكها، ولم تتوقع أن يَمسّها أحد. لقد تفاجأت، فانتشت من الفرح وكاد سامي أن يختنق، وراح جسده يرتفع عند كل عطسة، ورأى قدميه أعلى من شجرة الرمّان المزروعة في الدار، وصار قلبه يخفق وعيناه

تدمعان ليتراءى تحته بيت قديم، يتطاير من داره النحل، ما إن شاهد سامي حتى ارتفع مصطحباً إياه حتى لحظة دخوله المركبة الضوئية التي كانت تواكب عودته إليها منذ لحظة قدومه إلى المدينة، وحين نظر من خلال الزجاج شاهد نور والصديق المفترض والشقراء والعجائز والنادل وإدارة العلوم والطبّ يلوحون بأيديهم، فيما سمع الطبيبة نور بدوي تحدّث نفسها:

وأخيراً عثر سامي على دارته.

صيف ٢٠١٠

المؤلّف في سطور

الأستاذ الدكتور قاسم قاسم أستاذ في الجامعة اللبنانيّة

- كاتب خيال علمي – ناقد أدبي معروف.

- يكتب القصة والرواية له روايات عديدة ومجموعات قصصيّة منها :

(جسد حارّ – لعنة الغيوم – لمسة ضوء..........)

- عضو مؤسّس في رابطة كتّاب الخيال العلمي العرب .. التي أسّست في دمشق بمناسبة انعقاد الندوة الدوليّة لكتّاب الخيال العلمي – آب – ٢٠٠٩ - وعضو الهيئة الاستشارية لمجلّة الخيال العلمي التي تصدر عن وزارة الثقافة – الهيئة العامّة السوريّة للكتاب..

- شارك في العديد من مؤتمرات الخيال العلمي في سورية وتونس والقاهرة وفرنسا ......